



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون تيارت

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ



مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة الماستر في تاريخ الغرب الإسلامي في

العصر الوسيط

موسومة بـ:

علاقة الدولة المرينية مع بلاد السودان الغربي على عهد مملكة مالي

الإسلامية ما بين القرنين (6-9هـ/12-15م)

بإشراف:

د(ة).نعيمة طيب بوجمعة

من تقديم الطالبات:

■ دليلة بوزارة

■ شهرة بوجلاح

■ أم الخير بن ستي

لجنة المناقشة		
الصفة	جامعة الانتماء	العضو
رئيسا	جامعة تيارت	أ.د/ محمد عليلي
مشرفا ومقررا	جامعة تيارت	د(ة)نعيمة طيب بوجمعة
مناقشا	جامعة تيارت	أة/نوارة شرقي

السنة الجامعية: 1443-1444هـ/2022-2023م



قال تعالى

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

سورة العلق، الآيات: 1-5

شكر وتقدير

الحمد لله منير الدرب ملهم الصبر الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة العلم نشكر الله عز وجل الذي مكنا من تخطي المصاعب وأعاننا على إتمام هذا العمل على أحسن حال الحمد لله الذي هدانا لهذا والصلاة والسلام على خير الأنام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نشكر كل من قدم لتأييد العون والمساعدة في إنجاز هذه المذكرة وتخص بالذكر أستاذتنا المحترمة "نعيمه طيب بوجمعة" التي لم تبخل علينا بنصائحها وإرشاداتها من خلال إشرافها على عملنا خطوة بخطوة وبكل جدية ومهنية فكل الشكر لها

كما نشكر الأستاذين الفاضلين أ.د محمد عليلي والأستاذة نواره شرقي أعضاء اللجنة على قبولهم مناقشة هذه العمل

كما لا ننسى شكر كل من ساهم ومد لنا يد العون من قريب أو بعيد كل باسمه.

إهداء

إلى الذين قال فيهما الله تعالى

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (سورة الإسراء، الآية 23)

إلى من شرفهما الله تعالى في محكم كتابه وجعل رضاها من رضاه

لم يبقى للآخرين ما يقدموه لي ... فإن والدي قد فعل كل شيء

إلى سندي وملجئي الآمن، داعمي ومشجعي الدائم، إلى من رأيت انعكاس نجاحي وفرحي
بريقا في عينيه، إلى من جعل من نفسه شمعة تحترق لتضيء لنا درب النجاح، أبي "معمر" أدامك
الله تاجا فوق راسي وأطال الله لي في عمرك وحفظك لنا.

"إذا رزقت بفرحة... فابدأ بها مع أمك"

رفيقتي وأماني ... صديقتي وحببتي... بطلتي ومعلمتي الأولى... من علمتني الحنان والعطاء أمي
معنى الصبر والقوة والحب، إلى نور طريقي ورمز حياتي وحلاوتها، إلى من إذا سقطت وقفت
هي كالجبل الشامخ وسندتني أحبك أمي وحفظك الله لي ورعاك.
ها أنا اليوم أهديكم ثمرة تعبكم وأنا هنا بفضلكم.

إلى من شاركوني الرحم الواحد، وقاسموني كل حياتي إلى من تمنوا لي الخير أخواتي وأولادهم
وإخوتي الأعزاء: ياسين وأحمد ومحمد أوصلكم الله إلى ما تتمنونه.

إلى رفيقتي وصديقتي ومن قاسموني هذا العمل: شهرة ودليلة.

إلى كل من دعمني من بعيد أو قريب، لكل من ذكرتهم ذاكرتي ولم تذكرهم مذكرتي.

أم الخير

إهداء

أولاً الحمد لله والشكر له الذي بفضلته تتم الصالحات، فبفضله تم إنجاز هذه المذكرة القائل في

كتابه ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ سورة الإسراء، الآية: 85

ثم الصلاة والسلام على الحبيب المصطفى وعلى آله وصحبه أجمعين

ومنه فمن لا يشكر الناس لا يشكر الله.

فإنني أهدي عملي إلى من قال فيهم الله ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُمَّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا

قَوْلًا كَرِيمًا﴾ سورة الإسراء الآية: 23

إلى من يعجز اللسان عن وصفها إلى من حملتني وربتني، إلى أغلى امرأة على وجه الأرض "أمي

الغالية" شفاها الله وأطال في عمرها.

إلى من وضع تبعه سلاحاً لي ومن عانيته وحرسه راحة لي إلى الذي احترق لينير درب الحياة لي

الذي صرف من صحته وراحته باله "أبي الغالي" أطال الله في عمره وحفظه الله

إلى اللذين تقاسمت معهم عشرة الحياة، ودعموني من أجل أن أرتقي الدرجات إخوتي: عبد

القادر وأحمد وعلي وبن عيسى ورمضان، وإلى أخواتي عيدة وفتيحة من كانوا سنداً لي

طوال مسيرتي

وإلى أبناء إخوتي وكل عائلتي فرداً فرداً حفظكم الله لي

إلى كل أساتذتي اللذين كانوا ينبوع العلم الذي شربت منه منذ الابتدائي لليوم وخاصة معلمتي

الفاضلة "بلاغجي عائشة"، والتي كان لها الفضل الأكبر في نجاحي بعد توفيق الله ودعم أهلي

إلى من تقاسمت معهم حلاوة وتعب هذا العمل صديقتي أم الخير ودليلة

إلى رفيقات عمري المؤسسات الغاليات من لاقاني بهم درب العلم، كل واحدة باسمها حفظكم

الله لي وأدامكم لي صديقات مدى العمر، وإلى كل من دعمني من بعيد أو قريب

شهره

إهداء

إلى من خير مثال لرب الأسرة والذي لم يتهاون يوماً في توفير سبيل الخير والسعادة لي
إلى صاحب السيرة العطرة، والفكر المنير، إلى أبي الغالي أطال الله في عمره
أهدي ثمرة جهدي هذا إلى أعز وأغلى إنسانة في حياتي، التي أنارت دربي بنصائحها، وكانت
بحرا صافيا يجري بفيض الحب والبسمة إلى من زينت حياتي ببيضاء البدر
إلى من علمتني الصبر والاجتهاد إلى الغالية على قلبي أمي
إلى إخوتي وأخواتي حفظهم الله عز وجل وكل العائلة الكريمة
إلى صديقتي العزيزتين "أم الخير وخيرة"
إلى كل من ساعدني في كتابة هذه المذكرة طاقم مكتبة الفتح
إلى كل الأشخاص الذين أحمل لهم المحبة والتقدير
إلى كل من نسيه القلم وحفظه القلب

دليلة

مقدمة

عرفت بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن السابع الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي تغييرات سياسية عديدة إثر سقوط الدولة الموحدية، فقد استغلت زعامات القبائل الوضع من أجل تحقيق كيان سياسي مستقل، كهنتاتة في المغرب الأدنى، وبني عبد الواد في المغرب الأوسط وبني مرين في المغرب الأقصى هؤلاء الآخرين الذين أسسوا دولتهم المرينية ببلاد المغرب الأقصى، وارتبطت دولتهم بعلاقات سياسية واقتصادية وصلات ثقافية مع دول الجوار وبلاد الأندلس وحتى مع بلاد السودان الغربي.

وفي بلاد السودان الغربي ارتبطوا تحديدا بمملكة مالي الإسلامية، التي برزت كقوة سياسية واقتصادية في المنطقة منذ سنة 1230م، حيث استطاع مؤسسها سوندياتا كيتا من تأسيس دولة مترامية الأطراف شملت معظم أراضي غرب إفريقيا، وعمل منسى موسى أحد أشهر حكامها على تطويرها داخليا وخارجيا، فقد عمل على توطيد علاقاته بالدول الإسلامية القائمة آنذاك لا سيما الدولة المرينية.

لذا ارتبطت الدولة المرينية بمملكة مالي الإسلامية بأوثق الروابط السياسية والاقتصادية، وبأمتن العلاقات الودية، حيث كانت مملكة مالي الإسلامية تمثل أكبر الوحدات السياسية القائمة في بلاد السودان الغربي في أثناء فترة حكم بني مرين، كما أن قرب المسافة بين البلدين كان من بين العوامل التي وطدت العلاقة بينهما، ووصلت هذه العلاقات إلى درجة كبيرة من الازدهار والنمو فيما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين/الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين، من خلال تبادل الوفود والسفارات والهدايا بينهما، لذا وقع اختيارنا على موضوع "علاقة الدولة المرينية مع بلاد السودان الغربي على عهد مملكة مالي الإسلامية ما بين القرنين (6-9هـ/12-15م)"، وحددنا الإطار الزمني ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (12-15م) لأنه خلال هذا الفترة قويت علاقة المغرب الأقصى مع بلاد السودان الغربي، وهذه الأخيرة عرفت ظهور مملكة مالي الإسلامية كقوة سياسية واقتصادية بالمنطقة.

وتكمن أهمية الموضوع في كونه يعالج عدة جوانب تاريخية مهمة التي ساعدت على قيام دولة إسلامية في الممالك الوثنية، وهي كل من الجانب السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي، والثقافي، وترتبط أهمية الموضوع كذلك بالبحث عن أهم السفارات التي تمت بين الدولة المرينية ومملكة مالي التي كانت ركنا هاما في توطيد العلاقة بينهما، والمراكز التجارية الهامة التي جمعت بينهما، لتصبح فيما بعد مراكز حضارية ناشرة للدعوة الإسلامية، عاملة على تغيير الظواهر الاجتماعية في بلاد السودان الغربي خاصة السيئة منها، ليصبح المجتمع السوداني مملكة إسلامية بمحض الكلمة.

ويعود اختيارنا لهذا الموضوع لعدة دوافع، لعل من أهمها قناعاتنا بضرورة الغوص في تاريخ القارة الإفريقية باعتبارنا جزء منها، إضافة لرغبتنا في دراسة موضوع مختلف عما اعتدنا عليه من دراسات عن تاريخ بلاد الغرب الإسلامي.

أما عن الدراسات السابقة التي تناولت جانبا من الموضوع الذي نبحت فيه ، نذكر أهمها:

- 1- دراسة الباحث المغربي أحمد الشكري "الإسلام والمجتمع السوداني: إمبراطورية مالي" ركز فيه بشكل واضح على العلاقات المرينية المالية.
- 2- رسالة ماجستير "السفارات في المغرب الإسلامي خلال القرنين (7-13هـ/13-14م)" لآمال سالم عطية، ركزت الباحثة على الجانب الدبلوماسي بين دول المغرب الإسلامي ودول الجوار وما وراء الصحراء، فكتبت عن أهم سفارات بلاد المغرب بالإضافة إلى دور الفقهاء فيها وطبيعة العلاقات المرينية مع السودان الغربي.

- 3- كتاب "العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عصر دولتي بني مرين ومالي في القرن (7-9هـ/13-15م) للمؤرخ المصري فريد المهندس، وهي دراسة شملت كل العلاقات التي جمعت بين الدولة المرينية ومملكة مالي، لكنه لم يركز كثيرا على دور الجاليات المغاربية في نقل الإسلام لبلاد السودان الغربي الأمر الذي حاولنا إبرازه نحن في موضوعنا.

تمحورت إشكالية موضوعنا حول: طبيعة العلاقات التي جمعت الدولة المرينية ومملكة مالي الإسلامية خلال العصر الوسيط، وهل اقتضت على العلاقات السياسية والاقتصادية، وما مدى تأثير كل منطقة على الأخرى؟

وتتفرع عن هذه الإشكالية تساؤلات فرعية، وهي:

كيف كانت طبيعة العلاقات السياسية بين الدولة المرينية ومملكة مالي؟

كيف كان انعكاسها على البلاط المالي؟

وما هي أهم المحاور والطرق التجارية والمراكز التجارية التي ربطت بينهما؟

وما هي السلع التي كانت تنقل في إطار التبادل التجاري بين الدولتين؟ وكيف أثر المجتمع

المريني على المجتمع المالي والعكس؟

ما أهم الحواضر العلمية في الدولة المرينية ومملكة مالي، وكيف ساهم ذلك في ترسيخ

الإسلام ببلاد السودان الغربي؟

ومن طرائق الكتابة التي اعتمدنا عليها وفق المنهج التاريخي التحليل والوصف والاستقراء،

فقد جمعنا المادة من مصادرها الأولية، وقمنا بدراستها ونقدها وتحليلها، كما حاولنا المقارنة بين

العلاقات التي ربطت بين بني مرين ومملكة مالي وانعكاساتها على المجتمع المريني والسوداني سياسيا

واجتماعيا وثقافيا.

ولمعالجة هذه الإشكالية وضعنا خطة بحث متكونة من مقدمة ومدخل وفصلين وخاتمة

على النحو التالي:

مدخل تطرقنا فيه إلى "لمحة جغرافية وتاريخية عن الدولة المرينية ومملكة مالي الإسلامية

خلال العصر الوسيط"، عرفنا فيه بالمنطقتين جغرافيا التسمية والحدود والموقع، أما تاريخيا أشرنا

إلى بداية تأسيس الدولتين وأهم حكاهما وإنجازاتهم ثم تحدثنا عن أسباب سقوطهما.

الفصل الأول عنوانه بـ"العلاقات السياسية والاقتصادية ما بين الدولة المرينية ومملكة

مالي الإسلامية"، عالجنا بدايات الاتصال السياسي والدبلوماسي بين الدولتين، فكان علينا أولا

أن نتحدث عن طبيعة الحكم المريني والمالي، ثم تطرقنا إلى السفارات الدبلوماسية التي كانت بينهما، وكيف أثرت العلاقات السياسية على الدولتين. وفي المبحث الثاني "العلاقات الاقتصادية والنشاط التجاري المريني المالي"، ذكرنا أهم المحاور التجارية التي ربطت بين الدولتين والطرق التي تفرعت عنها، كما وضحنا الدور الاقتصادي للمراكز التجارية المرينية والسودانية في تنشيط الحركة التجارية بينهما، وكيف أن هذا انعكس إيجاباً على تقوية المبادلات التجارية.

الفصل الثاني عنوانه بـ"المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي"، وتطرقنا فيه إلى "المظاهر الاجتماعية" التي عرفها المجتمعان المريني والمالي، ثم التأثيرات المرينية المغربية على الحياة الاجتماعية بمملكة مالي وكيف أنها عدلت وغيرت من المظاهر الاجتماعية السيئة في بلاد السودان الغربي. والمبحث الثاني "الصلات الثقافية المرينية المالية"، وضحنا أولاً دور المغاربة في نشر الثقافة الإسلامية بمملكة مالي، وثانياً الوضع الثقافي والعلمي المريني والسودان فاشرنا إلى أهم الحواضر العلمية في الدولتين، ثم التأثيرات الثقافية المرينية على الواقع الثقافي المالي.

وفي الأخير وضعنا خاتمة جمعنا فيها ما توصلنا إليه مجموعة من استنتاجات لما قدمناه في هذه الفصول فكانت بمثابة خاتمة لموضوعنا.

ولأنجاز هذا العمل اعتمدنا على جملة من المصادر والمراجع المطبوعة، كانت في مقدمتها المصادر التاريخية والمصادر الجغرافية، نذكر منها:

1- كتاب "الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية" و"الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" للابن أبي زرع الفاسي (ت 726هـ/1326م)، وهو من كتب التاريخ العام لتاريخ المغرب الأقصى الذي استعرض تاريخ المرينيين ومنجزاتهم.

2- كتاب "تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" لابن بطوطة (799هـ/1377م) والذي اعتمدنا بشكل كبير في الحديث عن السفارات الدبلوماسية بين الدولة

المرينية ومملكة مالي، وفي حديثنا عن عادات وتقاليد المجتمع السوداني، إضافة لحديثه عن بعض العادات المستهجنة بمملكة مالي، ووظفنا المعلومات الجغرافية التي قدمها في التعريف ببعض المراكز والطرق التجارية.

3- كتاب "العبر ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" لعبد الرحمن بن خلدون (ت 808هـ/1406م)، وهو من أهم المصادر التاريخية التي تحدثت عن الدولة المرينية اعتمدنا عليها حيث عاصر بنو مرين وأحداثها ووقائعها، كما أنه أفادنا في ذكر السفارات الدبلوماسية المرينية والمالية.

4- كتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" للقلقشندي أبي العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م)، ويعد مؤلفه موسوعة استخدمنا منها المجلد الخامس، والذي تضمن معلومات كثيرة على بلاد السودان الغربي مثل تأسيس مملكة مالي وملكها منسى موسى، والمظاهر الاجتماعية فيها، كما ألقى الضوء على الجانب العمراني.

وبالنسبة للدراسات الحديثة ممثلة في المراجع والرسائل الجامعية، نذكر منها:

1- كتاب "التاريخ السياسي والاقتصادي فيما رواء الصحراء" لالدالي الهادي مبروك أفادنا في الهدايا والسفارات وفي المبادلات التجارية بين الدولة المرينية ومملكة مالي.

2- "التحولات الاقتصادية والاجتماعية في السودان الغربي من القرن 7هـ/13م إلى القرن 10هـ/16م" أطروحة دكتوراه لهواري رضوان.

3- "تأثير الإسلام وثقافته في السودان الغربي منذ القرن الحادي عشر ميلادي حتى نهاية القرن السادس عشر" للشيخلي حسن علي إبراهيم، تحدث عن الوضع الاجتماعي للمنطقة (الأسرة وكل ما يتعلق بها، العادات والتقاليد..)، كما بين مظاهر التأثير العربي الإسلامي على المجتمعات السودانية سواء على الجانب السياسي أو الثقافي وهو ما أفادنا في الفصل الثاني.

ولقد واجهنا عدة صعوبات أهمها صعوبة الحصول على بعض المصادر الأجنبية الخاصة بمملكة مالي معظمها غير قابل للتحميل، مع تركيز المصادر المتوفرة على التاريخ السياسي وإهمال التاريخ الاجتماعي والاقتصادي.

مدخل

لمحة جغرافية وتاريخية عن الدولة
المرينية ومملكة مالي الإسلامية خلال
العصر الوسيط

أولاً: الدولة المرينية:

1- أصل بني مرين:

يرجع نسب بني مرين إلى فخذ من قبيلة زناتة، وهم من البربر البتر، رفع البعض نسبهم من جدهم الأمير عبد الحق إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه¹، ويرى عيسى الحريري بأن الرأي الذي ينسب المرينيين إلى علي بن أبي طالب هو بعيد عن الصحة²، وأرجع ابن خلدون نسبهم إلى جدهم "مادغيس" بن بربر³، وهو نفس الرأي الذي أكده ابن زرع الفاسي في الذخيرة، حين قال: "هم الأشرف نسبا، والأعز كرما، والأحسن شيما، والأزكى ذمما والأرجح أحلاما... وأطولهم في الشدائد، فكانت لهم صفات الكرم والوقار والشجاعة والتواضع والصدق والوفاء"، ومدحهم الصميل في قصيدته قائلا:

مَرِينٌ سَادَهُ نَصْرُ كِرَاعٍ تَحَلَّوْا بِالشَّجَاعَةِ وَالسَّمَّاحِ
هُمُ الْقَوْمُ الْأَعَزُّ مُنْذُ كَانُوا دُوو الْأَفْضَالِ وَالْحُسْبِ الصَّرَّاحِ
أَقَامُوا الْمَجْدَ فِي سَمَكِ عَلِيٍّ وَمَدُّوا الْعِزَّ فِي أَرْضِ فَيَّاحِ⁴

أما ابن الأحمر في روضة النسرين وابن أبي زرع الفاسي فقد ذكرا بأن أصلهم عربي، فكتب ابن أبي الزرع الفاسي: "ولد مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن بدر بن يجفت بن يصليتن بن عبد ووتيب بن المعز بن إبراهيم بن شجيح بن واسين بن يصلتين بن مسرى بن زاكيا بن واسين بن زنات بن جانا بن يحيى بن تمریت بن ضريس وهو جالوت ملك البربر بن رجیح مادغيس الأبتَر بن بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان فهم

¹ - إسماعيل بن الأحمر، روضة النسرين في تاريخ بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، 1962م، ص 8.

² - عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610هـ-1213م/869هـ-1465م)، الكويت، دار القلم للنشر والتوزيع، ط2، 1408هـ/1987م، ص 4.

³ - ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج 7، تحقيق أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض، 2000م، ص 4.

⁴ - ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1972م، ص

عرب الأصل"¹. وبين السويدي ذلك في كتابه سبائك الذهب، حين قال: "بن بر بن قيس عيلان"²، أين اجتمع نسبهم بنسب الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث قيل أن قيس تزوج ابنة عمه البلهاء وأنجبوا مادغيس وعالوان الذي مات وهو صغير، أما مادغيس فهو أبو جميع قبائل البربر بدأ من بني مرين³.

2- مواطنهم:

تعتبر زناتة من الشعوب الأكثر عدداً ببلاد المغرب، ينقسمون إلى طبقتين، الأولى منها مغراوة، والثانية بنو عبد الواد⁴ وبنو مرين وهم أبناء عمومة، ويعتبر بنو مرين من بين أقدم السكان في بلاد المغرب، وذكر ابن أبي الزرع بأنهم سكنوا فلسطين وبلاد الشام ومصر، ثم تشردت لقيس ناقة فتبعها فانتهى به الأمر في بلاد أحواله البربر، فاستوطن معهم إلى أن مات في بلادهم، ونشأ ابنه مادغيس بينهم، ينطق بلغتهم ويتزين بزينتهم وانتشرت ذريته في البربر حتى صاروا ألوفا لا تحصى⁵، ثم استوطنوا إفريقية والمغرب وبلاد النخيل وغدامس والسوس الأقصى⁶، والصحاري كباقي القبائل البربرية، أما البقية منهم فقد سكنوا مع العرب الهلاليين

¹ - ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية، ص 15.

² - أبو الفوز محمد أمين البغدادي السويدي، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 11.

³ - ابن الأحمر، المصدر السابق، ص 8.

⁴ - بنو عبد الواد: هم من الطبقة الثانية من زناتة وهم من ولد يادين بن محمد إخوة توجين ومصاب وزردال وبني راشد، ويرتفع نسبهم إلى رزحيك بن واسين بن وارسيك بن جانا، وقد اجتمعوا مع إخوانهم بني مرين بالنسب في روجزيك بن واسين، وسيطروا على بلاد المغرب الأوسط. ينظر: ابن خلدون، المصدر السابق، مج 7، ص 97.

⁵ - ابن أبي زرع الفاسي، المصدر السابق، ص ص 9-10.

⁶ - السوس الأقصى: عبارة عن مدن كثيرة تقع وراء الأطلس باتجاه الجنوب، وعند نهاية بلاد البربر، وتبدأ عند المحيط غرباً، وتنتهي في رمال الصحراء جنوباً، وشمالاً عند الأطلس، وشرقاً عند النهر الذي يسمى باسمها ويصب في المحيط، وهي بلاد خصبة وفيرة قاعدتها مدينة أيجلى. ينظر: مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار في وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية، بغداد، د.س، ص ص 211-212.

الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ج 1، تحقيق وترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1983، ص ص 124-129.

ويوجد منهم قسم بالمغرب الأوسط فكانت منازلهم بزاب إفريقية إلى سجلماسة¹، ونزل البعض منهم القيروان إلى صحاري بلاد السودان، ودفعتهم الحملات الهلالية خلال القرن 5هـ/11م إلى صحراء المغرب الأوسط ليستقروا في المنطقة الممتدة بين مصاب وجبل راشد، وبالتالي لم تكن مواطنهم ثابتة لنمط حياتهم البدوية والرعوية القائمة على الترحال بحثا عن الماء والكأ².

ضمت قبيلة بني مرين أسرتين كبيرتين هما بنو عسكر وبنو حمامة، كانت الرئاسة في بني عسكر، وزعيمها هو المخضب الأعدر بن العافية بن عسكر الذي قاد القبيلة إلى انتصارات عديدة ضد المرابطين والحمايين، فبسط نفوذه في بوادي زناتة وبلاد المرابطين إلى ما يلي تلمسان، وفي بجاية والقلعة، وظل الحال على ما هو عليه حتى ظهر الموحدون، ففتحوا تلمسان ووهران على يد عبد المؤمن بن علي، وواجه جيش عبد المؤمن جيش المخضب بن عسكر سنة 540هـ/1146م وانهمز بنو مرين وقتل المخضب، فعادت بنو مرين إلى مواطنها، وانتقلت رئاستها إلى بني حمامة بن محمد بن عم المخضب، فتولى أمرهم أبو بكر بن حمامة ثم خلفه ابنه محيو بعد وفاته سنة 561هـ/1165م، وشارك محيو الخليفة الموحي المنصور الجهاد في الأندلس³.

وفي سنة 601هـ/1201م وقع خلاف بينهم وبين بني عبد الواد وبني واسين⁴ من تلك السنة، فقصد بنو مرين المغرب الأقصى ونزلوا بالجبل المطل على واد ملوية وهو جبل فاصل بين بلاد المغرب والصحراء، ودخلت طائفة منهم بلاد المغرب وعمروها بعد أن خلت من أهلها

¹ - ابن خلدون، المصدر السابق، مج 7، ص 4.

² - أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت.ن، ص 205.

³ - هوارية بكاي، العلاقات الزينانية المرينية سياسيا وثقافيا، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، 2017، ص 42.

⁴ - بنو واسين: وهم من الزناتة أولاد زاكيا بن واردين وأمهم واسين، حيث يذكر أنهم كانوا إباضيين موطنهم مثل مواطن الزناتة بطرابلس إلى جبل الأوراس والزاب إلى قبلة تلمسان إلى واد ملوية. ينظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 8-11.

بعد معركة حصن العقاب بالأندلس سنة 609هـ/1212م¹، كما لم يعرف بني مرين حرثاً ولا تجارة واشتغلوا بالصيد والغارات على بلاد المغرب، كما "كانت طائفة منهم تدخل بلاد المغرب في الصيف يرعون الأنعام وإن وصل فصل الخريف يعودون لأوطانهم"²، كما استوطنوا جبال طرابلس وضواحي أفريقية وجبل الأوراس، والأكثر منهم بالمغرب الأوسط حتى أنهم ينسب إليهم ويعرف به فيقال "وطن زناتة"³.

3- الدولة المرينية:

أ- مرحلة التأسيس:

كانت بداية الحكم المريني لبلاد المغرب الأقصى نتيجة صراع سياسي طويل دام ثمانية وثلاثين سنة تشاركت فيه الدولة المرينية ساحة المعارك مع الدولة الموحدية في أغلب المرات. كما حدث في معركة الأرك سنة 591هـ/1195م⁴، التي وقعت في الأندلس بين قوات الملك أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي وقوات ملك قشتالة ألفونسو الثامن، أين كلف المنصور الموحدي زعيم بني مرين الأمير محيو بن أبي بكر بن حماسة بقيادة المتطوعين من قومه وقبائل زناتة، وانتصر الموحدون مع بني مرين في هذه المعركة، غير أن الأمير محيو كان قد أصيب

¹ - معركة حصن العقاب (609هـ/1212م): فيها تصادم المسلمون بقيادة محمد الناصر بالله الموحدي مع القشتاليين ، وهزم فيها المسلمون، ولم ترفع رايتهم بالأندلس من بعدها حتى زمن يعقوب المريني، وكانت هذه المعركة ملكهم ألفونسو الثامن، وألفونسو الثاني ملك البرتغال وبيدرو الثاني ملك أراغون، فكانت هذه الهزيمة بداية ضعف الدولة الموحدية، لأنها شكلت نقطة تحول في تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية. ينظر: أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني بن أبي الدينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية، تونس، 1967م، ص 118.

² - ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنينة، ص ص: 25-26.

³ - أحمد بن خالد بن محمد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدولة المرينية)، ج3، تحقيق جعفر الناصري وأحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1997، ص 3.

⁴ - معركة الأرك (591هـ/1195م): أكدت هذه المعركة على قوة الدولة الموحدية، فقد أوقفت زحف النصارى على الأندلس، وتمكن يعقوب المنصور من الوصول إلى موقع لم يصل له ملك قبله، فقد عقد الصلح مع ألفونسو ملك قشتالة مدته عشر سنوات. ينظر: محي الدين عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط1، 1949م، ص 661.

بجروح عميقة أدت إلى وفاته بالزاب في نفس السنة، وقد مكنت المعركة لبني مرين سياسيا وعسكريا¹.

وبعد وفاة الزعيم محيو سنة 591هـ/1195م كان بنو مرين مجرد قبائل، تولى ابنه الأكبر أبو محمد عبد الحق بن محيو زعامتهم²، ودخل في صراعات مع الموحدين من أجل تأسيس دولة له، فبدأ يغير على نواحي المغرب وبواديه، ويعيث فسادا، فرجع السكان شكوى ضده ليوسف المستنصر بن الناصر الموحدي، الذي جهز جيشا بقيادة أبي علي بن وانودين، وأبو إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن والي فاس، فوصل الخبر لبني مرين فتجهزوا والتقى الجمعان بواد نكور سنة 613هـ/1276م، انهزم الموحدون وعادوا لفاس³. وبعد هزيمة الدولة الموحدية بقيادة الخليفة الناصر بالله الموحدي أمام القوات القشتالية بالأندلس في معركة حصن العقاب سنة 609هـ/1212م، عاد الناصر مهزوما ونزل بمراكش وتوفي بها، فتولى ابنه المستنصر بالله ولاية الدولة الموحدية، والذي كان صبيا لم يبلغ الحلم فاعتكف للهو واللعب، وسلم الحكم لأعمامه، وفوض أمره لوزرائه وشيوخه، فأفسدوا الحكم فظهر النقص في دينهم وبلادهم، فبعث الله بنو مرين لفنائهم ومكنهم في الأرض وجعلهم الوارثين⁴.

ثم زحف الزعيم عبد الحق بن محيو نحو رباط تازا واستولى عليه، وعقد صلحا مع أشياخ مدينة فاس ومكناسة والرباط وتازة فتعهد بحمايتهم مقابل الولاء له، بعدها نشب صراع داخل الأسرة المرينية بين بني حمامة وبني عمومتهم بني عسكر، فاستغله الموحدون خاصة مع لجوء بني عسكر للاستعانة بعرب رباح حلفاء الموحدين، وانتهى الأمر إلى اصطدام حاد بين أبناء

¹ - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 10.

² - ابن الأحرر، المصدر السابق، ص 14.

³ - أحمد السلاوي، المرجع السابق، ج ، ص ص 5-6. هوارية بكاي، المرجع السابق، ص 44.

⁴ - ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972م، ص 281.

العمومة في مواجهة عسكرية عنيفة بواجرهان بالقرب من وادي سبو سنة 614هـ/1217م، انتهت بمقتل الزعيم عبد الحق وابنه الأكبر إدريس¹.

فخلفه ابنه أبو سعيد عثمان الذي زحف على معسكر بني عمومته وحلفائهم عرب رياح للانتقام لأبيه وأخيه وكان له ما أراد، كما استغل في نفس الوقت ضعف الموحدين فدعا قبائل المغرب للدخول في طاعته، فبايعته قبائل هوارة وزكارة وتسول ومكناسة وغيرهم كثير، ففرض عليهم الخراج، ووزع عليهم العمال، وبذلك يكون قد وضع كيانا سياسيا لبني مرين لا تنقصه إلا قيام دولة فعلية يتم الإعلان عنها شرعا، لذا يعتبر أبو سعيد عثمان المؤسس الحقيقي للدولة المرينية²، فلم يكن أمام الموحدين إلا التخلّص منه عبر اغتياله سنة 637هـ/1239م³، لتذهب البيعة إلى أخيه أبو معرف محمد بن عبد الحق (637-642هـ/1239-1244م)⁴.

وقد اتبع أبو معرف نفس سياسية أسلافه في التمكين لقومه، ومواصلة الجهود السياسية والعسكرية لأجل تأسيس دولة خاصة بهم، فأخضع قبائل شمال المغرب وفرض عليهم الضرائب، كما تحالف مع المعارضين والمنشقين عن السلطة الموحدية كأبي معرف جرمون بن رياح، وحاصر مكناسة ثم سلفات الأمر الذي أقلق الرشيد الموحدي، فاستغل الخلاف الذي ظهر مرة أخرى بين بني عسكر وبني حمامة فتحالف مع وانودين من بني عسكر، وكان قد عقد له على مكناسة، لقتال أبي معرف لكن وانودين انهزم⁵، ثم قتل أبو معرف محمد بن عبد الحق

¹ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 349.

² - هوارية بكاي، المرجع السابق، ص ص 45-46.

³ - عبد الفتاح الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي بين بن حفص وبن زيان وبن مرين في التاريخ الإسلامي، ج 5، ط1، مكتبة مديونية، القاهرة، 1994، ص ص 212-213.

⁴ - أبو معروف: محمد بن عبد الحق بويغ بعد مقتل أخيه عثمان بن عبد الحق، واجتمعت أشياخ بن مرين عليه، فتح الكثير من بلاد المغرب وبواديه، وان شجاعا مطاعا، كثير الغارات، في سنة 642هـ/1244م، وبعد أن تمكن من الملك تمكينا اجتمع جيش الموحدين والعرب والروم عليه، فتصادمت الجيوش، وقتل في المعركة على أحد زعماء الروم، وهزم بن مرين، وولي مكانه أبو بكر بن عبد الحق. ينظر: ابن أبي زرع الفاسي، روض القرطاس، ص ص 289-290.

⁵ - ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ص 287-289. هوارية بكاي، المرجع السابق، ص ص 46-47.

سنة 642هـ/1247م، فخلفه أخوه أبو يحيى أبو بكر بن عبد الحق (642-656هـ/1244-1258م)¹ الذي بويع سنة 642هـ/1247م².

ومعه انتهت مرحلة الاستيلاء على المدن الكبرى فبدأت مرحلة بناء قواعد الدولة إذ أظهر كفاءة عالية في الحكم والإدارة فأعاد تنظيم قبائل مرين، وأصلح ما بينهم من خلاف، وأقر بيعة الحفصيين وحافظ عليها طيلة حياته هو ومن تبعه، وذلك من أجل استغلال الشرخ الذي وقع بين الموحدين والحفصيين حول مبادئ ابن تومرت وتنكر الموحدين لها³، وتوفي أبو بكر بن عبد الحق المريني سنة 656هـ/1258م فخلفه ابنه عمر بن يحيى بن عبد الحق المكنى أبا حفص بويع بعد أبيه سنة 656هـ/1258م، وخلع من طرف أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق⁴.

ب- مرحلة القوة والازدهار:

كانت مع الأمير يعقوب بن عبد الحق المكنى بأبي يوسف يعقوب المنصور بويع سنة 656هـ/1258م من طرف الشيوخ والرعية، قرب العلماء منه، بنى المدارس وملك المغرب الأقصى كله، كما توسع على حساب تلمسان بعد قتل أبي تاشفين، وملك تونس بعد قتل عمر بن أبي يحيى⁵، قاطع الموحدين بعد الاستيلاء على مراكش، واتخذ من فاس دارا لملكه، كما أقبل على الجهاد في الأندلس وأعز الإسلام فيها، بنى الجوامع والصوامع والقصور والحمامات والأسواق والقناطر وحمى الإسلام داخل المغرب وخارجه، ومعه انتهى عصر الدولة الموحدية وبدأ عصر الدولة المرينية بالمغرب الأقصى⁶.

¹ - أبو بكر بن عبد الحق: هو الأمير أبي بكر بن عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حماسة زناتي المريني أمه الحرة العبد الوادية كنيته أبو يحيى، كان فارسا شجاعا وهو أول من ملك بن مرين. ينظر: المصدر نفسه، ص ص 64-75.

² - ابن الأحرر، المصدر السابق، ص ص 16-17.

³ - هوارية بكاي، المرجع السابق، ص 47.

⁴ - ابن الأحرر، المصدر السابق، ص 17.

⁵ - المصدر نفسه، ص ص 22-28.

⁶ - ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السننية، ص 90.

وبعد وفاة يعقوب المنصور خلفه ابنه يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المكنى "أبا يعقوب" سنة 685هـ/1287م، الذي حرص على تطوير الحضارة والاهتمام بالرعية، كما عمل على إخماد الثورات في المغرب والأندلس، وأنشأ مدينة المنصورة بتلمسان، ثم خلفه عامر بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب المكنى "أبا ثابت"، ببيع بعد جده سنة 706هـ/1307م، وهو من عقد معاهدة مع أبي زيان لفك الحصار عن تلمسان الذي فرضه جده عليها، توفي سنة 708هـ/1309م فخلفه أخوه سليمان بن عبد الله بن يوسف المكنى "أبا الربيع" الذي فتح سبتة، وتنازل على الجزيرة الخضراء لبني الأحمر، وفي عهده وصلت الدولة لدرجة كبيرة من التقدم، مات مسموما سنة 710هـ/1311م فخلفه عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المكنى - "أبا سعيد" ببيع بعد وفاة أبي الربيع 710هـ/1311م، باشر أمور الرعية بنفسه، وحاول القضاء على الاضطرابات في مراكش، كما كان متشددا مع بني الأحمر في الأندلس، توفي سنة 731هـ/1332م¹.

فخلفه علي بن عثمان المكنى "أبا الحسن" (731-749هـ/1331-1348م) وبلغت الدولة المرينية أوج عظمتها على عهده، من أهم أعماله تحقيق الوحدة المغاربية وذلك بضم المغرب الأوسط فقد استولى على تلمسان سنة 737هـ/1337م -ولو لحين- وإفريقية ونجح في ذلك، ويعد أول سلطان مريني استطاع توحيد بلاد المغرب والأندلس منذ عهد الموحدين، كما قضى على ثورات المتمردين. وقد خرج عليه ابنه أبو عنان وقاتله، فانهزم ومرض إثر ذلك وتوفي سنة 752هـ/1351م، فخلفه ابنه أو عنان المتوكل على الله الذي بوع في حياة والده أبي الحسن سنة 749هـ/1348م. وقد تمكن أبو عنان المريني من استرجاع نفوذ المرينيين في بلاد المغرب الأوسط -تلمسان- وتونس وقسنطينة، كما قضى على خصومه ومنافسيه².

¹ - ابن الأحمر، المصدر السابق، ص ص 14-27. عبد الفتاح الغنيمي، المرجع السابق، ص 127.

² - عبد الفتاح الغنيمي، المرجع السابق، ص ص 81-127.

قرب العلماء منه فقد أرسل ابن المرزوق الخطيب إلى الأندلس، وشارك معه في فتح تونس¹، قتل خنقا على يد وزيره سنة 759هـ/1358م، فخلف ابن السعيد في الحكم، وبموت أبي الحسن المريني وأبي عنان المريني تنتهي فترة الهيمنة العسكرية المرينية على بلاد المغرب الإسلامي، وكانت هذه آخر مرحلة من توحيد بلاد المغرب والأندلس، وآخر مرحلة من القوة والاستقرار في العهد المريني.

ج- مرحلة الضعف (759-870هـ/1358-1465م):

كانت بداية ضعف وسقوط الدولة المرينية نتيجة العديد من الأسباب الداخلية والخارجية التي أدت إلى ضعف السلطة المركزية، بداية من الانقسامات الداخلية كنزاع سلاطين الدولة على الحكم مثلا، والنزاعات بين أفراد الأسرة الحاكمة وأبناء عموماتهم، بالإضافة لضعف شخصية ملوك الدولة بعد أبي عنان لذا استغل الوزراء والمتنفذون الوضع وتسلطوا على الحكم²، بداية من محمد بن أبي عنان وأبي بكر السعيد والذي كان صبيا في عمر العاشرة، والمتوكل بالله أبي زياد والذي لم يكن له نفوذ يذكر، أما ابنه السعيد أبو فارس فقد ظهرت منه محاولة إحياء مجد بن مرين، وقد بويع محمد بن أبي العباس وهو ابن أخت المتوكل في عمر الخمس سنوات كان صبيا لم يبلغ الحلم، خلع في نفس السنة التي بويع فيها، أما أبو فارس عبد العزيز بن أحمد (795هـ/1393م-798هـ/1396م) وأبو عامر عبد الله بن أحمد (798هـ/1396م-800هـ/1398م) كانت أمهم الحاجب الأعلى لهم، ثم أبو سعيد عثمان بن أحمد (800هـ/1398م-823هـ/1421م) كان في عمر السادسة عشر فقد دان بالطاعة لبني حفص³.

¹ - أبو عبد الله محمد ابن مرزوق الخطيب التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس فيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 24-25.

² - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 157.

³ - ابن الأهرم، المصدر السابق، ص 30-41. عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 49. للاطلاع على حكام الدولة المرينية، ينظر الملحق رقم 1، ص 137.

وعليه فإن وفاة أبي عنان كانت آخر مرحلة من مراحل توحيد بلاد المغرب، وبوفاته انتهت آخر مرحلة من حكم السلاطين الأقوياء لبني مرين، لأن من جاؤوا بعده اكتفوا بالحفاظ على نفوذهم فقط¹.

بالإضافة إلى استبداد الوزراء والحكام، فقد كان هذا العمل من عوامل الضعف والسقوط، فمن قبل كانت في يد ملوك ووزراء صاحين، أما في هذه الفترة فقد تحولت السلطة كلها أو أغلبها ليد الوزراء، بالإضافة لتسلط أسرة القدودي ثم أسرة الوطاسين، بالإضافة إلى تدخل العنصر اليهودي في شؤون الدولة، وضعف الروح الحربية فقد غاب الحكام عن الفتح في الأندلس، بالإضافة لحروبهم مع بني عبد الواد والحفصيين من أجل توحيد المغرب، وتدخل العنصر المسيحي، تارة بالتشجيع وتارة بالتدخل المسلح خاصة ملك قشتالة، حتى تم الاحتلال على يد البرتغال في 818هـ/1415م²، انقلبت الحرب إلى بلاد المغرب، احتل البرتغاليون مدينة أصيلا سنة 876هـ/1471م، واقتصرت أملاك المرينيين على فاس، وخرجت مراكش وتافيلالت ودرعة والسوس الأقصى عن طاعتهم، وبعدها سقطت فاس في يد الأشراف السعديين سنة 956هـ/1549م، وبهذا كانت نهاية الحكم المريني³.

ثانيا: بلاد السودان الغربي على عهد مملكة مالي الإسلامية

1- تسمية بلاد السودان الغربي:

كلمة السودان مأخوذة من اللفظ الذي يدل على جميع البقاع التي يقطنها السود من قارة إفريقيا، كما أطلقت على المنطقة الشبه الصحراوية⁴، واستوحوا التسمية من لون بشرة

¹ - عبد الفتاح الغنيمي، المرجع السابق، ص 265.

² - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص ص 79-81.

³ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1999، ص 786.

⁴ - جميلة بن موسى، تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي من القرن 9م إلى 11م، رسالة ماجستير منشورة، كلية العلم الإنسانية، قسم التاريخ، الجزائر، 2000، ص 14.

السكان¹، وكان العرب أول من أطلق كلمة السودان على الأقاليم التي تقطن جنوبي الصحراء الكبرى².

وتعني بلاد السود (أي الجنس الأسود) يقصد بها شمال إفريقيا، المغرب، الصحراء والسودان صفة جمع أسود والمقصود الرجال ذوي البشرة السوداء الذين يعرفون أيضا "الأساود" كما استخدم العرب كلمة البيضان أي الرجال ذوي البشرة البيضاء³.

وأطلق العرب اسم التكرور على جميع بلاد السودان التي دخلها الإسلام وهي المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي حتى حدود وادي النيل، فأصبحت كلمة تكرر مرادفا لكلمة سوداني⁴، ويقول القلقشندي: "مالي وهي المعروفة عند العامة ببلاد التكرور"⁵، والصحيح أن التكرور هو أحد الأقاليم التي خضعت لسيادة مالي. كما أن بلاد السودان تعرف أيضا بأرض الشعوب السوداء⁶، حيث قال الأصبخري (ت 346هـ/957م) "ينتهون إلى بلاد السودان فيكون الناس بها أشد سوادا"⁷.

2- الموقع الفلكي والجغرافي:

تقع أراضي السودان الغربي ما بين دائرتي عرض 4° و 16° شمال خط الاستواء في الجنوب وخطي طول 13° و 17° غرب خطي غرينتش، ويحدها شمالا الصحراء الكبرى، وشرقا

¹ - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ط1، ص ص 20-21.

² - الهادي مبروك الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، ط1، دار المصرية اللبنانية، 1999، ص 17.

³ - نبيلة حسن محمد، في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2013، ص ص 195-196.

⁴ - الهادي محمد علي ذهني، جهاد الممالك في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (1850-1914م)، دار المريخ للنشر، الرياض، 1988، ص 28.

⁵ - أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج5، دار الكتب الخديوية، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1333هـ/1915م، ص 282.

⁶ - فيج جي دي، تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة السيد يوسف نصر، دار المعرفة، القاهرة، ط1، 1982، ص 18.

⁷ - أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفاسي الأصبخري، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العالي الحسيني، دار القلم، مصر، 1961م، ص 44.

كاميرون وبحيرة تشاد، جنوبا خليج غينيا وغربا المحيط الأطلسي¹، أما ما يشار إليه بالسودان الغربي فيعني الجزء الواقع غربي بحيرة تشاد وساحل المحيط².

حاول الكتاب العرب الجغرافيين الإمام بحدود السودان الغربي أمثال الإدريسي والمسعودي وابن بطوطة³، فقد حددها الأصبخري، بقوله: "...فإن بلاد السودان الذي في أقصى المغرب على البحر المحيط بلد مكنف، ليس بينه وبين شيء من الممالك اتصال غير أن حدا له ينتهي إلى البحر المحيط وحدا له برية بينه وبين أرض المغرب وحدا له إلى برية بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات وحدا له ينتهي إلى البرية"⁴.

حددها القلقشندي (ت821هـ/1418م)، بقوله: "وهي بلاد متسعة الأرجاء، رحبة الجوانب، حدها من الغرب البحر المحيط الغربي، ومن الجنوب الخراب مما يلي خط الاستواء، ومن [الشرق] بحر القلزم مما يقابل بلاد اليمن، والأمكنة المجهولة الحال شرقي بلاد الزنج في جنوبي البحر الهندي، وله من الشمال براري الممتدة ما بين الديار المصرية وأرض برقة، بلاد البربر، من جنوبي المغرب إلى البحر المحيط"⁵، أما ياقوت الحموي (ت622هـ/1225م)، قال: "أرض السودان وهي ما بين البربر إلى الهند"⁶.

فبلاد السودان حسب ما جاء في المصادر ترتبط حدودها مع دول بلاد المغرب شمالا، ومع إريتيريا والحبشة شرقا، ومع أوغندا والكونغو في الجنوب، وفي الغرب مع دولة تشاد وتفوق مساحة السودان ضعفي مساحة مصر ولذلك تباعدت خطوط العرض في بلاد السودان وكان

¹ - محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريد، المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2007، ص1، صص19-20.

² - بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، منشورات جامعة قار يونس، ليبيا، ط2، 1988م، ص28.

³ - محمد رياض وكوثر عبد الرسول، إفريقيا دراسة لمقومات القارة، مؤسسة هندواي، مصر، ط2، 2015، ص12.

⁴ - الأصبخري، المصدر السابق، صص10-11.

⁵ - القلقشندي، المصدر السابق، ص273.

⁶ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج1، 1997، ص18.

لهذا التباعد نتائجه في تنوع الظواهر المناخية والحياة النباتية والحيوانية والبشرية وتعددت النواحي الحضارية الريفية الصحراوية، كما تنوعت المجتمعات البشرية وتعدد الاقتصاد¹.

وبعد تتبع أقوال الرحالة والجغرافيين والمؤرخين العرب تتضح لنا حدود منطقة بلاد السودان تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى البحر الأحمر شرقا، ومن الهامش الجنوبي للصحراء الإفريقية الكبرى شمالا حتى المنطقة الاستوائية جنوبا، وتقسم جغرافيا إلى ثلاثة أقسام:

- السودان الشرقي: ويشمل مناطق النيل وروافده جنوبا إلى بلاد النوبة.
- السودان الأوسط: ويشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد.
- السودان الغربي: وهو يشمل حوض السنغال وغامبيا وبوركينا فاسو (فلتا العليا) والنيجر الأوسط².

3- مملكة مالي الإسلامية (1230-1430م):

تعرف مملكة مالي في العادة باسم مالي (Mali) التي حلت كقوة رئيسية في السودان الغربي محل مملكة غانة³، ورد ذكرها في المصادر الجغرافية والتاريخية وكتب الرحلات، وأول من ذكرها هو البكري باسم "ملل"⁴، وعند ابن بطوطة "مالي" حين زارها في 1344م حيث قال: "...ثم سرنا في كارسخو فوصلنا إلى منتصرة وهو على نحو عشرة أميال من مالي"⁵.

¹ - محمود السيد، تاريخ دول المغرب العربي، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب وموريتانيا، الإسكندرية، 2000، ص 286-287.

² - إبراهيم حامد لمين، التبادل التجاري بين إقليمي توات والسودان الغربي وأثره الاجتماعي والثقافي (999-1317هـ/1591-1900م)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، غير منشورة، جامعة غرداية، 2016/2015، ص 24.

³ - فيج.جي.دي، المرجع السابق، ص 19.

⁴ - أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، د.س، ص 178.

⁵ - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 771.

أما السعدي فذكرها "ملي"¹، ومحمود كعت "مل"²، وأعطى لنا القلقشندي كيفية نطقها الصحيح فقال: "ومال بفتح الميم وألف بعدها لام مشددة مفخمة وياء مثناة تحت في الآخر"³، ويضيف في موضع آخر "مالي معروفة عند العامة ببلاد التكرور"⁴، واشتهر ملكها باسم ملك التكرور، والصحيح أن التكرور هو أحد الأقاليم التي خضعت لسيادة مالي⁵، والحسن الوزان يسميها "مالي"⁶.

تغطي مملكة مالي مساحة شاسعة ذهب تمتد شمالا إلى جنوب المغرب الأقصى، وغربا إلى المحيط الأطلسي وشرقا إلى حدود مملكة البرنو، وحاليا تشمل مالي الحالية وأعالي السنغال الشرقي، وشمال كل من فولتا العليا والبنين والجنوب الأقصى من جمهورية موريتانيا⁷.

أ- مرحلة التأسيس:

تجمع الروايات أنه بعد فتح المرابطين لغانة 469هـ/1076م تدهورت الحياة فيها لدرجة أن قبيلة صوصو التي كانت تدفع الضرائب لغانة أعلنت استقلالها، ثم حاولت السيطرة على بعض الأقاليم التابعة لها، ونجحت في ذلك، ونتيجة لهذا الاستيلاء نزح مسلمو غانة هربا من جور الملك الجديد، الذي شرع في محاولة شعب الماندينجو الذي كون عن طريق تجمع عشائره الصغيرة والمتعددة مملكة مالي⁸.

¹ - عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان، المدرسة البارزية لتدريس الألسنة الشرقية، باريس، 1981، ص 9.
² - محمود كعت التنبكتي، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم التكرور، تحقيق وترجمة هوداس دولافوس، 1913، ص 80.
³ - القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص 282.
⁴ - المصدر نفسه، نفسه، ج5، ص 272.
⁵ - الدالي الهادي المبروك، المرجع السابق، ص 50.
⁶ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 164.
⁷ - الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص 50.
⁸ - عطية مخزوم الفيثوري، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة انتشار الإسلام)، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط1، 1997، ص 262.

ولا يعرف إلا القليل عن نشأة مملكة مالي ويتلخص ذلك في أنه نحو منتصف القرن الحادي عشر الميلادي تقريبا اعتنق ملوك الماندنغو في كانجبا الإسلام، وأنشؤا دويلة صغيرة انفصلت عن مملكة غانة، وظفرت بنوع من الاستقلال الذاتي، مستغلة الصراع الذي نشب بين المرابطين ومملكة غانة، فتمكن ملوك كانجبا أن يوسعوا مملكتهم أوائل القرن 7هـ/13م في اتجاه الجنوب والجنوب الشرقي، مما أثار حفيظة ملك صوصو سومانجورو الذي أخذ يعمل للسيطرة على مملكة كانجبا الناشئة، وكادت جهوده تكفل بالنجاح، بعد أن استطاع القضاء على دولة غانة عام 600هـ/1203م فتغلب عليها¹، كان مستاء من المكانة التي وصلها إقليم مالي ومن اتساع حدوده، فتآمر ضد مالي، لكن يبدو أنه حدث انشقاق في جبهة صوصو حيث نشب صراع بينه وبين ابن أخيه وقائد جيوشه، وكان صراعا قويا جدا لدرجة أن الأخير انضم إلى جيوش سوندياتا (سونجاتا)².

وهذا الأخير تمكن من جمع جيش قوي من الماندينج قاده في صراع مع صوصو سنة 1230م، وتمكن من الانتصار عليهم، وتوسيع حدود مملكته وهزيمة أميرهم سومانجورو - كما يعرف بسومن كورو كانتيه أيضا- في معركة كيرينا (Kirina) سنة 633هـ/1235م، ثم أخضع صوصو خمس سنوات تحت حكمه، وضم ملكه إلى مملكته وفر ملكهم، فقام زعماء قبائل الماندينغ بتنصيبه كإمبراطور عليهم، وأثناء حفل تنصيبه خلع زعيم الماندينغ لباس الصيادين وظهر في المنصة الشرفية أمام الزعماء لتقبل آيات الولاء والطاعة، بلباس المؤمن كندورة بيضاء محاولا بذلك تقليد نموذج الخليفة المسلم القوي، مما يعني أن للإسلام دور جوهري في توحيد قبائل الماندينغ³.

¹ - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 373.

² - عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص 272.

³ - أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي (1230-1430م)، أبو ظبي، ط1، 1999، ص 217.

المؤسس سندياتا كايता (Soundjata keita) (628-653هـ/1230-1255م):

عرف سندياتا أيضا باسم ماري جاطة ومعناه الأمير الأسد¹، واعتبره شعبه البطل القومي والمؤسس الفعلي لمالي، لأنه قتل زعيم قبائل صوصو سومانجورو كاتي (Souman Kourou kant) في معركة كيرينا، ثم قضى بعدها على الوثنية، واستولى على ما تبقى من مملكة غانة وألحقها بمالي عام 638هـ/1240م، ثم ووجه نظره إلى فتوحات جديدة في النيجر وفوتا جالون، فوصلت حدوده إلى قلب الأدغال جنوبا وإلى النيجر الأيمن شرقا وتوقفت عند الأطلسي غربا، بينما توغلت في الصحراء شمالا استقر أمر المملكة بعد الفتوحات، وتمتعت البلاد باستقرار عظيم وهيبة كبيرة أتاحت له أن يتلقب باسم "منسى"² أي السلطان بلغة المالنكي- ونظم مملكته³، وقسمها إلى مقاطعات ولى عليها أقرباءه وجعلها وراثية فيهم⁴.

وحين اعتلى سندياتا كايता عرش كانجابا كانت مدينة جريبا (Jeriba) عاصمة لتلك المملكة، ولكن حين اتسعت رقعة الأراضي التي فتحها وضمها إلى إمبراطوريته الوليدة، وجد أنه من الأنسب نقل العاصمة إلى مدينة نياني (Niani) الواقعة على نهر النيل، في مكان يتوسط أرجاء إمبراطوريته الجديدة التي أطلق عليها اسم إمبراطورية مالي.

¹ - القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص 293.

² - منسا: عرف ملوك مالي به بلقب، وسوندياتا أول من تلقب به، وأصل اللقب حسب الروايات الشفوية المحلية أن رؤساء العشائر المتحالفة قرروا أثناء الجمع العام الذي انعقد بعد معركة كرينا سنة 1235م في كورو كان فوغان بالقرب من كانجابا، إطلاق لقب منسا على سوندياتا والذي يعني الحاكم أو القائد الأعلى أو الإمبراطور، وهو مشتق من لغة الماند، وعرف الملوك الذين سبقوه بالقب وثنية تعكس مفهوم الشجاعة والقوة مثل "سمبسون" (Simbon). ينظر: بنرمضان زوليخة، المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 5 و10هـ/11 و16م. ج 2، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، 1436هـ/2015م، ص ص 178-179.

³ - نعيم قداح، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، مراجعة عمر الحكيم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مديرية التأليف والترجمة، دمشق، 1960، ص 49.

⁴ - جوان جوزيف، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات أفريقيا السوداء، ترجمة مختار السوفي، دار الكتاب المصري، مصر، 1984م، ص 66.

وقضى سندياتا في حكم البلاد قرابة عشرين سنة إلى أن توفي سنة 653هـ/1255م¹، وعند وفاته كانت مملكة مالي قد اتسعت في حدودها إلى بلاد الولوف غربا عند المحيط الأطلسي وإلى أواسط النيجر شرقا ومن فوتا جالون إلى كومي صالح عاصمة غانة السابقة شمالا².

اعتبر سندياتا كايثا أول من أسلم من ملوك مالي³، ثم ملك بعده ابنه المنسا ولي -أي الحاكم علي- (652-669هـ/1255-1270م)، وهو الابن الأكبر لسندياتا كايثا عرف بالملك الأحمر، اعتمد على قواد أبيه ومستشاريه الذين قاموا بمساعدته في توسيع رقعة مملكته، وإلى جانب ذلك قام برحلة الحج التي كان لها صدى واسع في مناطق إفريقيا والعالم العربي، لما كانت تحمله من الذهب والعبود وخيرات مالي، غزا جنجرا وونغارة⁴، واتسمت فترة حكمه بالرخاء إلى حد ما، وبالتوسيع في المناطق المجاورة، والسيطرة على بعض مناجم الذهب، استمر حكمه حوالي خمسة وعشرين سنة⁵.

وفي عام 1285م اغتصب الحكم أحد القواد من عبيد العائلة الملكية واسمه ساكوره Sakoura (684-700هـ/1285-1300م) وقد تمتعت البلاد في عهده بالاستقرار بعد فترة اضطرابات التي أوصلته إلى الحكم⁶، واتسع نطاق مملكته وغلب على البلاد المجاورة له، وفتح بلاد كوكو واستضافها إلى مملكته، واتصل ملكه من بحر المحيط الغربي إلى بلاد التكرور، فقوى

¹ - تضاربت الروايات الشفوية حول موت سندياتا كايثا، فالبعض منها قال بأنه مات مقتولا في إحدى الحفلات بسهم طائش، والبعض الآخر يرى بأنه مات غرقا في مياه نهر سنكراني في ظروف غامضة. ينظر: عطية مخزوم الفيتور، المرجع السابق، ص 274.

² - الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص 53.

³ - أحمد الشكري، المرجع السابق، ص 173.

⁴ - وونغارة: وتسمى كذلك ونكرة إقليم متاخم للإقليم السابق من جهة الجنوب الشرقي، سكانها أغلبهم تجار في الذهب بالبلدان النائية المجاورة لهم من الجنوب لتوفرها على كمية وافرة من الذهب. ينظر: الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م، ص ص 174-175.

⁵ - نعيم قداح، المرجع السابق، ص 51.

⁶ - الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص 56.

سلطانه، وهابه أمم السودان ورحل إليه التجار من بلاد غرب إفريقيا¹، قام برحلة الحج وتوفي سنة 700هـ/1300م واستمر حكمه خمسة عشر عاما².

ب- مرحلة الازدهار:

يعتبر عهد منسا موسى (712-737هـ/1312-1337م) وأخيه منسا سليمان (741-761هـ/1341-1366م) المرحلة التي بلغت فيها إمبراطورية مالي قمة ازدهارها وأوج عظمتها وقد ضلت أصداء هذه الفترة الزاهية عالقة بأذهان السودانيين وهذا ما ترجمه رواية محمود كعت: "وكنا نسمع من أعوان عصرنا يقولون سلاطين الدنيا أربعة ما خلى السلطان الأعظم سلطان بغداد وسلطان مصر وسلطان برن وسلطان مل"³.

قام منسا موسى على الصعيد الاقتصادي بتشجيع التجارة التي ازدهرت نظرا لسيطرة الأمن في طرق القوافل، وكان البربر والطوارق يتولون عمليات نقل البضائع والقوافل التي بلغ تعدادها عام 1350م اثني عشر ألف حمل تحمل جوز الكولا والعاج والملح والذهب، ولعل أهم حدث في عهد منسا موسى هو رحلته المميّزة إلى الحج 1324م التي لفتت أنظار العالم في تلك الزمن إلى ثروة مملكته مالي الطائفة، فحسب المؤرخ المملوكي العمري فإن منسى موسى قد أخذ معه في رحلته إلى الحج كميات هائلة من الذهب تقدر بمائة حمل، وكان كل يوم جمعة يبني مسجدا في المكان الذي تتوقف فيه قافلته⁴.

توفي منسا موسى سنة 736هـ/1337م بعد أن حكم ربع قرن، وترك وراءه إمبراطورية واسعة اشتهرت بين الممالك الإفريقية باتساع رقعتها وثروتها، فكانت مثلا قويا لقدرة الأفارقة على التنظيم السياسي والاقتصادي لحياة الناس، امتدت من تكور في الغرب إلى غاو في الشرق وما وراءها، وضمت جزء من الصحراء وامتدت جنوبا حتى الغابات الاستوائية، شهد

¹ - القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص 294.

² - الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص 56.

³ - محمود كعت، المصدر السابق، ص 38.

⁴ - محمد فاضل علي باري، المرجع السابق، ص 82-83.

حكم منسى موسى اتساعا كبيرا في تجارة مالي بسبب علاقاته مع الخارج وبخلاف الصدقات التي أقامها مع مصر والجزيرة العربية بفضل رحلته للحج كان على صلوات طيبة ببني مرين في فاس¹.

وخلفه أخوه سليمان بن أبي بكر (741-761هـ/1341-1360م) قضى مدة طويلة في الحكم قد أتاحت له فرض طاعة المملكة على كثير من المناطق، وعلى تأديب الوثنيين إلا أنه لم يفلح في استرداد مدينة غاو، ولما مات خلفه ولده الملك قنبنا (تبتنا) (761-762هـ/1360-1361م) حكم تسعة أشهر وكان ضعيفا، انتقل الحكم بعدها إلى سندياتا الثاني بن مغان الأول بن موسى (762-776هـ/1360-1374م)² حكم مدة أربعة عشر عاما لغاية وفاته، كان حاكما سيء السيرة، ومبذرا أتلف ما في خزائن الدولة، بعده جاء الحكم لابنه موسى الثاني (776-790هـ/1374-1387م)، قام بمحاربة دولة سنغاي التي احتلت أجزاء واسعة من مالي، كما تميز عهده بهجوم الطوارق على تمبكتو، توفي منسا موسى الثاني عام (761هـ/1387م) وخلفه أخوه مغان الثاني (761-762هـ/1387-1388م) بدأ عهده بحروب أهلية بين الطامعين بالعرش قتل هو فيها 762هـ/1388م³.

فخلفه زوج أم موسى الثاني الملك صندكي الذي أطيح به بعد بضعة أشهر من الحكم (762-764هـ/1388-1390م)، وفي هذه الأثناء كانت مملكة مالي تمر بأسوأ أيامها فقد تفكك جيشها، ولم يعد ذلك الجيش المدافع عن البلاد وأطماع الأعداء⁴، فاستولى على الحكم حينها أحد أحفاد سوندياتا الأول، وهو منسا مغان الثالث سنة 764هـ/1390م،

¹ - أحمد الشكري، المرجع السابق، ص 187.

² - نعيم قداح، المرجع السابق، ص 57.

³ - محمد فاضل علي باري، المرجع السابق، ص 87.

⁴ - عبد الحميد مقادم، المدارس العلمية ودورها الثقافي في السودان الغربي (مالي-سنغاي) ق 7-10هـ/13-13-

16م، أطروحة دكتوراه غير منشورة في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، 2018، ص 90.

وبدأت على يديه سلالة كايتا الجديدة واستمرت في الحكم حتى مجيء الاستعمار الفرنسي، وحكم من بعده ثلاثة ملوك ضعاف لم يكن لهم ذكر، كان أولهم ملك يدعى الملك محمد عاش لغاية سنة (755هـ - 1481م)، في عهده أصبحت مملكة مالي تابعة لإمبراطورية سنغاي ابتداء من سنة (869هـ/1464م) والتي أسسها الملك سني علي¹.

ج- مرحلة الضعف والانهايار:

مع مطلع القرن (9هـ/15م) أصبحت الإمبراطورية تعاني من أزمة سياسية خانقة واكتبتها تهديدات الشعوب الخاضعة لسلطانها، وباستقلال منطقة الحوض الأوسط لنهر النيجر من مالي تداعت أركان الإمبراطورية وانكسرت شوكة الدولة²، وفي الجنوب شنت قبائل الموشي هجمات كبيرة وواسعة على دولة مالي في عهد منسا ماغان (733-757هـ/1333-1356م)³، كما ستشهد المملكة فترة أخرى من الضعف على عهد منسا موسى الثاني (776-789هـ/1374-1371م) الذي كان أميل للكسل وعدم الاكتراث بالمسؤولية، فسلم شؤون مملكته إلى حاجبه⁴.

وبداية من سنة 837-838هـ/1433-1434م بدأت المملكة تفقد سيطرتها على جزء من مناطقها الغربية وخصوصا بعد هجوم الطوارق على الأجزاء الشمالية من مالي، واستيلاءهم على مدينتي تنبكت وولاته، ومن الجنوب الغربي شن الفلانيين والتكارنة هجمات موجعة على مملكة مالي وسيطروا على أجزاء منها، كما ستهدد قبيلة سنغاي نفوذ مملكة مالي، فظهرت قوة غاو التي أخذت تضم ولايات مالي الولاية تلو الأخرى في الجهة الشرقية، ومن الغرب استولت

¹ - أحمد الشكري، المرجع السابق، ص 221.

² - المرجع نفسه، ص 194.

³ - بشار أكرم جميل ملاح، تاريخ الإسلام في إفريقيا، دار الفكر، ط1، 2014م، ص 205.

⁴ - إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص 305-306.

على ديارا ولم يبقى لها في هذه الفترة سوى بعض المناطق التي تقع جنوب جني، في المناطق الغابات الاستوائية وبعض الأقاليم في الناحية الشرقية¹.

وهكذا عانى سلاطين سلالة كيتا كثيرا من المصاعب الخارجية في سبيل تثبيت سلطتهم وقد أرادوا أن يعوضوا عن فقدان المناطق الشمالية والشرقية من مملكتهم، فوجهوا اهتمامهم للمناطق الغربية في كامبيا وما حولها، ولكن المملكة كانت تسير من ضعيف إلى ضعف وتحول تاريخها إلى حوادث محلية ضيقة².

وإضافة إلى هذا التدهور السياسي حلت الأزمة الاقتصادية بمملكة مالي عندما فقدت السيطرة على الطرق التجارية الصحراوية، ومحاولة لتصدي هذا الاكتساح عقد ملك مالي مع ملك البرتغال جون الثاني (Jhon II) معاهدة تحالف ولكن البرتغاليين لم يلتزم بها مما اضطر منسا مالي إلى الاستعانة بالعثمانيين، ولكن ملك البرتغال رأى من الحكمة بما كان مساعدة مالي خوف امتداد النفوذ العثماني إلى الجنوب فبعث له بسفارتين قدمتا إلى بلاط مالي³، لكن فات الأوان أصبحت مالي تلفظ أنفاسها الأخيرة في بعض المناطق التي تبقت لها في الجنوب خلال الربع الأخير من القرن 9هـ/15م حين بدأت سنغاي كقوة سياسية بالمنطقة⁴.

¹ - LY Madina, "L'empire du mali à travers les sources portugaise", R.A. Z. N°= 6,7 1977, Alger: C.N.E.H, p 21.

² - نعيم قداح، المرجع السابق، ص 58.

³ - عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق، ص 105.

⁴ -LY Madina, Op. Cit, p 21.

الفصل الأول

العلاقات السياسية والاقتصادية ما بين الدولة المرينية ومملكة مالي الإسلامية

المبحث الأول: العلاقات السياسية والدبلوماسية

أولاً: نظام الحكم المريني والمالي

ثانياً: السفارات الدبلوماسية المرينية المالية

ثالثاً: أثر العلاقات السياسية على الدولة المرينية ومملكة مالي

المبحث الثاني: العلاقات الاقتصادية والنشاط التجاري المريني
المالي

أولاً: المسالك التجارية بين الدولتين

ثانياً: المراكز التجارية المرينية والسودانية

ثالثاً: المبادلات التجارية بين الدولتين

المبحث الأول: العلاقات السياسية والدبلوماسية

غالبا ما تكون السفارات نتيجة لعلاقات جيدة بين البلدين، فيتبادل الطرفان الوفود والسفارات والهدايا، رغبة من حكام كل دولة في تعزيز المنافع والمصالح المشتركة بينهما، وهذا ما سينعكس إيجابا على العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والصلات الثقافية.

أولا: نظام الحكم المريني والمالي

1- المريني:

كان نظام الحكم المريني نظاما وراثيا، فقد كان الأولون منهم يسمون بأمرء المسلمون، بعد ما جاء أبو عنان جنح إلى التسمية بأمر المؤمنين، ليتبعه من جاء بعده بهذا النظام¹، حيث اتخذ حكام بني مرين لأنفسهم لقب السلطان، وكان يشترط في السلطان أن يكون منتميا إلى البيت المريني الحاكم، وكثيرا ما كان السلطان الجديد ابنا أو حفيدا أو أخا للسلطان المتوفي، وقد جر ذلك ويلات كثيرة في عصر نفوذ الوزراء الذي استمر من سنة 759-869هـ/1357-1465م، أين أصبح السلاطين ألعوبة في يد الوزراء نتيجة ضعف شخصيتهم، مما جعل أمر الحل والعقد بين يدي الوزراء، الذين انفردوا بترشيح سلاطين صغار السن لم يتجاوز سن البعض منهم خمس سنوات، ولم يعترض أحد على ما أقره الوزراء².

أصبحت كل السلطات الحقيقية بيد الوزراء غالبا، يعاونهم في التنفيذ الحامية المسيحية بالعاصمة، وكان لليهود مع ذلك وظائف لا يستهان بها ضمن الوظائف الداخلية بالقصر الملكي، وأحيانا في الوظائف الكبرى كالحجابه والوزارة، وكان هناك المجالس الخاصة وأهل الشورى بالمشورة، حيث يعقد الملك اجتماعاته مع كبار رجال الدولة³، وكانت وظيفة الحاجب وظيفة تنظيمية وهي أن يقوم الحاجب بباب السلطان ليكون صلة ربط بينه وبين الرعية، حيث

¹ - محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط3، 2000م، ص 81.

² - محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 261.

³ - إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، مج2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1978م، ص 119.

لا يتداخل ذلك مع وظيفة الوزير وهو يتزأس مجموعة الحرس السلطاني لباب السلطان، وكان سلاطين بني مرين يعينون بعض حجاجهم إما من عبيدهم المخلصين أو من أهل الذمة أو من الخصيان من أهل الثقة¹، كما كان المشرف العام على السجون هو الحاجب كما كان يتولى تنظيم الناس وإلزامهم بالحدود في دار العامة لعرض مظالمهم على السلطان².

في عهد ملوك بني مرين فقد تعدد الوزراء، وكان لهم رئيس يحمل نفس اللقب، أما عن سلطاته فكانت واسعة، جمع بين الشؤون المدنية والعسكرية في غيبة السلطان، خاصة فقد كانت مجالس الوزراء بقصر السلطان أوقات منظمة، وكان لبعض السلاطين ثقة مطلقة في وزرائهم حتى كانوا يدخلون قصورهم ويخالطون حريمهم من غير استئذان، فقد كان هناك وزراء يتكفون بدراسة مختلف الشكايات، ووزير يشرف على ديوان الجند وآخر للشؤون المالية، وساعدهم موظفو مختلف الدواوين أي الإدارات المركزية، وفي أغلب أيام بني مرين كانت وظيفة الوزير أرقى رتبة من الحاجب³.

كانت وظيفة الكتابة في الدولة المرينية من أهم وأخطر الوظائف المعاونة للسلطان المريني ولذلك أفرد لها سلاطين بني مرين ديوانا مستقلا بها، أطلقوا عليه اسم "ديوان الإنشاء والعلامة"، وكان ذلك الديوان يضم عدد كبير من الكتاب الذين يقومون بتدريج الكتب والرسائل، وقد ترأس هذا الديوان في العصر المريني عدد كبير من أئمة الفصاحة والبيان، وكان سلاطين بني مرين يسندون إلى كتابهم في بعض الأحيان بعض المهام الأخرى التي رفعت من شأن هذه الوظيفة وأصحابها، فالسلطان يعقوب بن عبد الحق اختص كاتبه عبد الله بن أبي

¹ - عبد الفتاح الغنيمي، المرجع السابق، ص 271.

² - عيسى الحريزي، المرجع السابق، ص 267.

³ - إبراهيم حركات، المرجع السابق، مج 2، ص 124.

مدين شعيب¹ "بوضع علامته على الرسائل والأوامر الصادرة عنه وجعل إليه حسابان الخراج والضرب على أيدي العمال وتنفيذ الأوامر بالقبض والبسط فيهم"².

2- المالي:

تمتعت مملكة مالي برقعة ترابية شاسعة، ونظام حكم ملكي وراثي في الأغلب الأعم، وكان نظام تولي عرش المملكة لا يقتصر على أبناء الملك بل حتى إخوة الملك قد يكون لهم نصيب في العرش، ومنسا سليمان خير دليل على ذلك، وقد يتولى الملك أحد أبناء الأخت أو بنات الأخت فهو أمر مألوف عندهم، وما يبرهن على ذلك تولي منسا أبي بكر أمر البلاد سنة (674هـ/1275م) وهو ينسب إلى منسا سوندياتا على أنه ابن بنته³، كما كان الحكم ينتقل من الملك إلى أفراد أسرته الذكور، فإن لم يترك عقبا من الذكور ينتقل العرش إلى أحد أقربائه وفقا للشريعة الإسلامية التي حلت محل العرف القبلي منذ القرن الثاني عشر⁴.

وكان شأنه في ذلك شأن بقية الأنظمة الإفريقية نظاما قريبا، ويرى شيخ القبيلة على أنه ممثل للإله، وبأنه زعيم عظيم لأقوى القبائل، وتشتد فيه القوة التي هي عنصر مقدس، لذا يوضع في قمة الهرم الاجتماعي، والعشيرة شكلت وحدة اقتصادية وسياسية كبيرة متكاملة⁵.

كما كان هناك مستشارون وموظفون يساعدون منسا موسى في حكومته أهمهم نائب السلطان ويكون والي العاصمة أيضا، ويعرف النائب باسم "قنجا"، يقوم مقام السلطان إذا غاب، ويساعده في تصريف شؤون البلاد، حيث كان يلقب الوزير بلقب "صندكي" ويعتبر

¹ - أبو مدين شعيب (509هـ/1115م-594هـ/1198م): هو شعيب بن حسين الأنصاري الأندلسي، أصله من أحواز إشبيلية، كان زاهدا في الدنيا، وعارفا بالله، نال من المعارف الربانية مما رزقه الله، له مقام خاص بسطه بالعلم، وقبضه بالمراقبة. ينظر: ابن قنفذ أحمد، أنيس الفقير وعز الحقيير، ترجمة محمد الفاسي، سلسلة الرحلات "2"، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، المركز الجامعي للبحث العلمي، ص 11.

² - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص ص 265-266.

³ - المهادي مبروك الدالي، التاريخ السياسي، ص 66.

⁴ - نعيم قداح، المرجع السابق، ص 10.

⁵ - عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص ص 263-264.

رئيس العبيد، وفي هذه الحالة يعرف باسم "ديون الصندكي" (Dyon Sandaqui)، وله أهمية كبيرة في حكومة مالي المركزية، فقد كان يستطيع أن يتحكم بجميع الأمور دون المنسا، خاصة إذا كان هذا الأخير ضعيف الشخصية أو صغير السن، يعتبر العبيد المحررين من أهم الطبقات في المجتمع المالي، فكان جل سلاطينها يعتمدون عليهم¹.

¹ - محمد فاضل علي باري، المرجع السابق، ص 93.

ثانيا: السفارات الدبلوماسية المرينية المالية

ترجع جذور العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربية إلى فترات سحيقة في التاريخ نسبة لقدم الصلات السياسية والاقتصادية بين الجانبين، ويلاحظ بأن ازدهار العلاقات قد بلغت أوجه بين القرنين 7-9هـ/13-15م، تحديدا في عهد السلطان المريني أبي الحسن (732-752هـ/1331-1351م) ونظيره المالي منسا موسى الذي عرفنا أنه من أظم سلاطين مال على الإطلاق، وأيضا في عهد خليفته أخوه منسا سليمان، كما عملت مملكة مالي على توطيد علاقاتها مع جيرانها وخاصة مع المغرب الأقصى، فتبادلت الوفود ورسائل المؤازرة معه. وأول من تحدث عن العلاقات الدبلوماسية بين حكام الدولتين هو ابن خلدون، ويكاد يكون المصدر الوحيد والأهم عن تلك السفارات ومضامينها، وذلك في عهد السلطان أبي الحسن المريني عندما انتصر على الزيانيين وضم تلمسان إليه¹، فأرسل إليه سلطان مالي منسا موسى سفارة تهنئه على انتصاره هذا².

وفي الحقيقة أن منسا موسى كان أول من اخترق الستار الحديدي للحاجز اللوني الذي كثيرا ما أبعد أهل بلاد السودان الغربي عن العالم المتمدن، وبالغ السلطان أبو الحسن في استقبال الوفد المالي والاحتفاء به، ورد على هذه السفارة بسفارة كبيرة ظهرت فيها أبهة الملك المريني، حيث حملت هذه السفارة هدايا كثيرة إلى السلطان المالي³، "فأتحف طرفا من متاع المغرب وماعونه من ذخيرة داره وأسناها"⁴، وكان من أعضاء الوفد الدبلوماسي المريني كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مدين ومولاه عنبر الخصي، ورافقهم زعيم عرب المعقل

¹ - محمد عبد الكريم شكيران، العلاقات الدبلوماسية لدولة بني مرين 668-869هـ/1269-1465م، أطروحة

دكتوراه في الآداب (تاريخ الإسلام)، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، 2013م، ص 225.

² - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 353.

³ - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 222.

⁴ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 353.

الأمير علي بن غانم¹، وذلك من أجل حماية السفارة وما تحمله من تحف وهدايا من النهب والسلب ومن قطاع الطرق، لأن عرب المعقل آنذاك كانوا هم المتحكمين في الطريق التجاري الرابط بين درعة وسجلماسة إلى حدود مملكة مالي جنوبا حتى المحيط الأطلسي².

ولما وصلت السفارة المرينية إلى ملكة مالي استقبلها منسا سليمان وأكرم وفادتها فأحسن إلى أعضاء الوفد المريني، ويبدو أن الوفد المريني قد نقل إلى منسا سيلمان تعازي السلطان أبي الحسن المريني في وفاة أخيه منسا موسى، وتقديم التهنئة له كسلطان جديد، وقد استحسّن منسا سليمان ذلك، باعتباره سلوكا إسلاميا يدعو إلى التخفيف عن أقارب المتوفى ومواساتهم والدعاء للميت بالمغفرة³.

ودعما لروابط الأخوة والمحبة أرسل سلطان مالي مع وفد التعزية عند رجوعه إلى المغرب الأقصى سفارة برئاسة الحاج الونجرتي إلى السلطان المغربي أبي الحسن المريني يؤكد له فيها استمرار العلاقات الطيبة بين البلدين، على الرغم من الظروف السيئة التي تعرضت لها مملكة مالي بعد وفاة السلطان منسا سليمان⁴، فقد "اختلف أهل مالي وافترق أمرهم وثواب ملوكهم على الأمر وقتل بعضهم بعضا، وشغلوا بالفتنة، حتى قام بهم منسا جاطة واستوثق له أمرهم ونظر في أعطاف ملكه، وأخبر بشأن الهدية وأخبر أنها بوالاتن فأمر بإنقاذه إلى ملك المغرب، وضم إليها حيوان الزرافة الغريب الشكل، العظيم الهيكل، مختلف الشبه بالحيوانات"⁵.

لقد شهدت هذه الفترة قيام علاقات قوية بين المغرب ومالي دامت قرابة ثمانين عاما وامتازت بتبادل السفرات وحسن الجوار بين الدولتين، احترمت كل واحدة منهما سيادة

¹ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص ص 352-353.

² - محمد عبد الكريم شكيران، المرجع السابق، ص 222، هـ 1، ص 222.

³ - فريد المهندس، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عصر دولة بني مرين ومالي (في القرن 7-7

9هـ/13-15م)، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، دمشق، ط1، 2021، ص 112.

⁴ - الهادي مبروك الدالي، التاريخ السياسي، ص 70.

⁵ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 411.

الأخرى على أراضيه، وبالسعي الحثيث الموصول لتأمين طرق التجارة وكبح جماح الأعراس وبتبادل الهدايا على نحو شجع الكثيرين على السفر وتعرف أبناء القطرين كل منهما على وضعية الآخر ومشاغله وأحواله¹.

1- نماذج عن بعض السفارات المرينية:

قام ابن بطوطة برحلته المشهورة وتبتدئ هذه المرحلة بخروجه للرحلة في يوم الخميس الثاني من شهر رجب عام 725هـ/1355م²، قدم ابن بطوطة إلى مالي في الرابع عشر لجمادى الأولى سنة ثلاثة وخمسين فحدث اختلاف بين المؤرخين حول رحلته هل هي رحلة استكشافية أم أنها كان موفدا من طرف أبي العنان المريني؟

وحسب رأي صاحب كتاب الترجمانة الكبرى أنها مجرد رحلة كغيرها من الرحلات حيث قال أنه سافر بعد وصوله إلى فاس ولم يجتمع به وتوجه إلى الصحراء ثم السودان، ولما بلغ الخبر إلى السلطان، كتب له واستقدمه، وعاتبه على عدم الاجتماع به لما قدم من الأندلس إلى فاس³، كذلك حسن الشاهدي يرى أن هذه الرحلة لا تختلف عن سابقتها من الرحلات، فقال: "أما لم تكن لها صفة السياحية الجغرافية فقط"، ولكنها على غرار الرحلات خصصت حيزا هاما للعلماء الذين صادفهم الرحالة في طريقه، فدفاعها يتمثل في نزعة ابن بطوطة الاستكشافية، ورغبته في الإطلاع على عوالم وأراضي وبلدان مختلفة⁴.

وكذلك صاحب كتاب أدب الرحلات الأندلسية والمغربية ذكر أنها كانت لرغبته في التعرف على الأقطار والشعوب بعد أن كان باعته الأول على الرحلة هو إرادة الحج وأنه انتقل

¹ - محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي نشأته وآثاره، ج1، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، د.ت.ن، الكويت، ص 51.

² - الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج 1، منشورات عكاظة، د.ت.ن، ص 252 .

³ - أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، دار المعرفة، الرباط، 1991م، ص 58.

⁴ - الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ص 273.

إلى السودان بينما كان فالسلطان منشغلا في تثبيت دعائم ملكه ومحاربة أعدائه التهميش، بالإضافة إلى محمد بن أحمد بن شقرون الذي لاحظ من حديثه بأنها مجرد رحلة استكشافية لبلاد السودان الغربي، حيث قال: "وما إن انتهى من رحلته حتى هب أبو عنان وبعث إليه وهو لا يزال في بلاد إفريقية، فقفل راجعا منفذا أوامر ملكه مطيعا ممتثلا. فكانت الغاية هي الاهتمام بتدوين الرحلة وتنظيمها كي لا تضيع فائدتها"¹.

أما كراتشوفسكي يورد في كتابه أن ابن بطوطة ارتحل إلى مالي بأمر من السلطان المريني أبي العنان وأن رحلته كانت تجسسية²، خلقت أجواء مشحونة بالتوتر بين مالي والمرينيين، وأساءت إلى علاقات البلدين، وأضاف أن ابن بطوطة قد رحل إلى مالي بهدف دراسة الطرق التجارية بين البلدين، ومعرفة حجم الذهب المتبادل بين مصر والسودان من أجل تحويلها نحو الدولة المرينية، ودلل على ذلك بقوله أن ابن بطوطة لدى عودته من مالي اتخذ طريقا غير الذي سار عليه في الذهاب³.

أما ابن بطوطة يذكر بأنه دخلها بالربيع عشر جمادى الأولى سنة ثلاثة وخمسين وخرج عنها في اثنان وعشرين محرم سنة أربعة وخمسين، وقال أنه ارتحل إلى السودان بعد أن ودع مولاه السلطان الحسن، ولكن لم يخبر أنه ذهب بأمر منه⁴، ولا نجد خيرا من الرحالة ابن بطوطة الذي يشهد له الكل اليوم بالصدق والتحري في رواياته فهو يقدم لنا وصفا عن رحلته إلى السودان⁵. وحسب رأي القائلين أن رحلة ابن بطوطة كانت بهدف تعزيز العلاقات السياسية، وأنها كانت جزء من مشروع كبير لدى السلطان أبي العنان، نذكر رأي الباحث محمد بن عبد الكريم

¹ - محمد بن أحمد بن شقرون، *مظاهر الثقافة المغربية*، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1985م، ص 75.

² - إغناطيوس يوليانو فيس كراتشكوفسكي، *تاريخ الأدب الجغرافي العربي*، ج1، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، جامعة الدولة العربية، القاهرة، مصر، 1963م، ص 42.

³ - أحمد الشكري، المرجع السابق، ص 277.

⁴ - ابن بطوطة، المصدر السابق، ج 2، ص ص 230-252.

⁵ - محمد الزمبير، *المغرب في العصر الوسيط*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة البحوث والدراسات رقم 24، ص 119.

شكيران الذي يؤكد من خلال دراسته لتقرير ابن بطوطة عن مملكة مالي ومشاهداته هناك، تبين له أن رحلته فعلا كانت رحلة استكشافية، لأنه خلال رحلته لمالي سجل معلومات قيمة عن أحوالها، هذا ما جعله يتفق مع الباحثين على أن رحلته كانت بإيعاز رسمي من السلطان أبي عنان، ويعزز ذلك ببعض النصوص الواردة بتقريره، هذا ما يدل بجلاء على أن مهمته الرسمية كانت بغرض دراسة ميدانية واستطلاعية لمالي والبلدان التي تعامل معه¹.

سفارة عام 762هـ / 1360م:

بعد وفاة منسا سليمان تولى الحكم منسا ماري جاطة الثاني (762-776هـ/1360-1374م)، فأرسل بسفارة محملة بالهدايا إلى السلطان أبي الحسن، والتي ذكر ابن خلدون أنها تتمثل في حيوان الزرافة، وتم استقبال هذا الوفد من طرف السلطان المريني أحسن استقبال، وكانت هذه آخر السفارات بين الدولتين².

ولم تفصح المصادر التاريخية عن أسباب انقطاع العلاقات بين الدولة المرينية ومملكة مالي في عهد أبي عنان المريني الذي استولى على الحكم، ويفسر بعض الباحثين هذا الانقطاع إلى توتر العلاقات بين منسا سليمان وأبي عنان بسبب رحلة ابن بطوطة الاستكشافية، وربما يكون انشغال أبي عنان بأمر الأندلس سبب في انشغاله عن ربط علاقات دبلوماسية مع مالي، إضافة لحالة انعدام الأمن بين طريق المغرب والسودان الغربي بعد وفاة أبي عنان المريني مخنوقا سنة 755هـ/1357م، فسيطرت عرب بني المعقل على النواحي الجنوبية، مما خلق حالة من الفوضى وانعدام الأمن، فلربما كان ذلك سببا في عدم انقطاع التواصل الدبلوماسي بين الطرفين، رغم ذلك ظلت العلاقات التجارية والصلوات الثقافية على جيدة ولم تتأثر بانقطاع السفارات بينهما³.

¹ - محمد عبد الكريم شكيران، المرجع السابق، ص 225.

² - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 115.

³ - محمد عبد الكريم شكيران، المرجع السابق، ص ص 227-228.

يتضح لنا من خلال السفارات التي تم إرسالها من طرف الملوك المالين كانت بهدف كسب ود السلاطين المرينيين، وإظهار حسن الجوار، واحترامهم لمصالح دولتهم، وابتهاجهم بفتوحاتهم العسكرية، ولقد تطورت التجارة آنذاك مع المدن المالية حيث عرف قسم من المدن المغربية ما اصطلاح عليه بالوكالة التجارية التي أسسها وقتئذ المقرري الجد، والتي نظمت أعمال تجارة السودان، وكان مركزها تلمسان للوقوف على تنظيم التجارة المارة ما بين سجلماسة-تغازة-ولاته، وتأمين المستلزمات الضرورية للقوافل، ونظم هذه الوكالة خمسة أخوة، اثنان في تلمسان، واثنان في ولاته، والخامس في سجلماسة، وبدأت العلاقات مع أبي الحسن المريني والتي ازدهرت بعده وهو ما انعكس على العلاقات الاقتصادية بينهما مما كان لذلك أثر وأهمية كبرى في حياة سكان المملكة¹.

2- نماذج عن بعض السفارات المالية:

سفارة عام 737هـ/1337م:

جاءت هذه السفارة بعد الانتصارات التي حققها السلطان أبو الحسن في المغرب الأوسط عندما تمكن من إخضاع دولة بني زيان عام 737 هـ/1337م، لذا أوفد منسا موسى سفارة لتقديم التهئة لسلطان أبي الحسن المريني، لتهنئته بالنصر الذي حققه على السلطان أبي تاشفين الزياني، وأراد منسا موسى أن تكون سفارته معبرة وتوصل كل ما يريد قوله إلى السلطان أبي الحسن، فأرسل معها أعيان مملكته يتقدمهم رجل يدعى "فرانقيس"، كما انتدب رجلا صنهاجيا ليكون ترجمانا لها²، كما حرص منسا موسى على أن يظهر كل معاني حسن الجوار والاحترام للمرينيين، وإظهار البهجة بانتصارهم، وحظيت هذه السفارة بحسن الاستقبال من قبل أبي الحسن المريني، وهذا ما أقنع منسا موسى بأن السلطان المريني لم تكن لديه رغبة في

¹ - حسين بويدي، محاضرة الحواضر الصحراوية الفاعلة في العلاقات، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، 2021/2020، منصة التعليم عن بعد، ص 6، الرابط الإلكتروني:

<https://elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727>

² - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 222.

ضم الأراضي المالية إلى أملاكه، وفي المقابل جهز أبو الحسن المريني من جانبه سفارة محملة بهدايا فاخرة للرد على سفارة منسا موسى لكن هذا الأخير توفي سنة 738هـ/1337م، وخلفه منسا مغا الذي دام حكمه أربع سنوات وكانت فترة حكمه مضطربة، فأرسل السلطان أبو الحسن المريني بسفارة تعبيراً على رغبته لاستمرار العلاقات الودية بينهم، ويعبر عن تعازيه على وفاة أخيه، لكن السفارة وصلت بعد استلام منسا سليمان لمقاليد الحكم 741هـ/1340م¹.

سفارة عام 748هـ/1348م:

بعدما استولى أبو الحسن المريني على تلمسان ثم تونس وطرابلس وبجاية سنة 748هـ/1347م، انتهز منسا سليمان الفرصة وبعث له بسفارة يهنئه فيها على فتحه الجديد²، وكانت السفارة برعاية أمير الزواودة يعقوب بن علي بعد أن دخلت مدينة بسكرة قبل وصولها إلى تونس، وكان من بين أفراد تلك السفارة الحاج موسى الونجراتي الذي لقيه ابن بطوطة بمالي، إلا أن تلك السفارة تعرضت للسلب والاعتداء³.

¹ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 110.

² - ابن خلدون، المصدر السابق، ص 277.

³ - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 259.

ثالثاً: أثر العلاقات السياسية على الدولة المرينية ومملكة مالي

من بين النتائج الإيجابية للسفارات أن تمكن منسا موسى بفضل جهوده توطيد العلاقات الثقافية بين الجانبين، وشجع رعيته على طلب العلم، كما أبدى احترام ل لعلماء ولطلبة العلم ، لذلك أرسل بعثات علمية إلى فاس على نفقة الدولة، وكان من يحصل على علومه في المغرب الأقصى يعود إلى بلاده ليعمل في وظائف متقدمة كالقضاء والإمامة أو التعليم، ومن بين أولئك الطلبة عبد الرحمن التميمي¹، ولما كانت للرحلة العلمية مساهمة فعالة أضحت مالي كذلك مركز استقطاب للعلماء، وفي زيارة ابن بطوطة لاحظ وجود الكثير من الأحياء منها حيا خاصا للعلماء، وكان كبيرى فقهاء مالي محمد بن الفقيه الجزولي وشمس الدين النقويش المغربي، ولم تكن تلك الأحياء في أقاليم السودان التي كانت تسمى أحياء "البيضان" مقصورة على الجماعات الوافدة من المغرب الأقصى فحسب، بل كانت تشمل المهاجرين القادمين من تونس وتلمسان².

كما يظهر تأثير المغرب المريني دبلوماسيا على بلاط مملكة مالي واضحا فقد استخدم سلطان مالي الخط المغربي في مراسلاته مع الملوك، واعتمد على اللغة العربية كلغة للرسائل السلطانية الرسمية³، وفي ذلك يقول القلقشندي "أن السلطان لا يكتب شيئا في الغالب بل يوكل كل الأمر إلى صاحب وظيفته من هؤلاء فيفصله، وكتابتهم بالخط العربي على طريقة المغاربة"⁴.

ومن بين التأثيرات التي انتقلت للسودان الغربي بفضل التواصل السياسي تأثير العمران المغربي على فن العمارة السودانية، والذي نما وتطور وازدهر بدخول المغاربة والمهاجرين

¹ - حسين بويدي، المرجع السابق، ص 8.

² - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 222.

³ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 136.

⁴ - القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 298. العمري بن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق إبراهيم صالح، المجتمع الثقافي، أبو ظبي، 2002م، ص 123.

الأندلسيين، وأقدم مثال لهذا الفن عندما استعان السلطان منسا موسى بخبرة العالم أبي إسحاق الساحلي، الذي استخدم الطوب المحروق والأصباغ في تشييد قصره وقسم من المساجد¹.

وعلى أي حال فإن هذا الاتصال والتقارب الجغرافي قد أسفر عن قيام تبادل تجاري نشط بين البلدين، وتم على إثر ذلك نقل كميات كبيرة من الذهب إلى المغرب الأقصى في مقابل ملح الصحراء والمنتجات القادمة من حوض البحر المتوسط وأوروبا من نسيج وأسلحة وحيول وكتب ومصنوعات زجاجية²، وقد ارتبطت الدولة المرينية بدولة مالي الكبرى عن طريق الطرق والمسالك التي تربط بلاد المغرب الأقصى ببلاد السودان الغربي، وهذه الطرق تخرج من بلاد سوس الأقصى إلى مصب نهر السنغال، أو من جنوب مراكش إلى مصب نهر السنغال ومن نهر النيجر والمناطق الواقعة جنوبا وهناك طرق أخرى³.

ولم يقتصر دور المغاربة في مالي على توطيد العلاقات السياسية بين مملكة مالي والدولة المرينية، بل أسهم هؤلاء المغاربة من الفقهاء والعلماء بتطور كبير في رسم السياسة العامة لمملكة مالي الإسلامية، فقد شغل البعض منهم وظائف وخططا دينية كبرى جعلتهم يساهمون بشكل كبير في تنظيم وتطوير الجهاز الإداري والسياسي لمملكة مالي الإسلامية، كما كانوا يسعون إلى نشر الأمن بينهم وتسخيرهم لرسم سياسة المملكة⁴، حيث أن التوسع العظيم في تجارة مالي ونشاطها زمن منسا موسى بصفة خاصة يعزى إلى نشاط هذا السلطان وسعيه الدائب في دعم العلاقات الخارجية وتنميتها ويعتبر منسا موسى أول من حطم الستار الحديدي وهو حاجز اللون والتفرقة العنصرية فيما نسميه حديثا حتى وصف هذا السلطان بأنه صديق البيض⁵.

¹ - محمد عبد الكريم شكيران، المرجع السابق، ص 229.

² - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 86.

³ - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 22.

⁴ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 132.

⁵ - محمد على باري وأحمد سعبد كريدية، المرجع السابق، ص 91.

من هذه العلاقة الوطيدة بين بلاد السودان الغربية وبلاد المغرب نبعت العلاقات القوية بين الدولة المرينية ودولة مالي في بلاد السودان الغربي، فوصلت هذه العلاقات إلى درجة كبيرة من الازدهار والنمو لم تصل إليها من قبل في العهود السابقة، حيث أعطى انتشار الإسلام في بلاد السودان الغربي وخاصة دولة مالي مركزاً ثابتاً إزاء الدولة المرينية وتجارتها¹، ويظهر تأثير المغرب دبلوماسياً حسب قول القلقشندي "يظهر واضحاً في استخدام سلطان مالي الخط المغربي في رسائله إلى الملوك واعتماد اللغة العربية كلغة الرسائل السلطانية الرسمية"².

لقد تمسك ملوك بني مارين فيما يتعلق بالممالك الإفريقية جنوب المغرب المحافظة على علاقات الود والإخاء التي تربطهم كمسلمين بتلك الممالك، حيث أمست إمبراطورية مالي عدداً وافراً من الأقاليم الإفريقية وقد بلغت أوج عظمتها بعهد منسا موسى الذي حكم طوال ربع قرن تمكن فيه من توحيد الفئات والنزاعات المتنافرة وقد حرص على ربط علاقات الود مع كافة الدول المشهورة في عصره، وإذا كانت شهرة منسا موسى قد طبقت الآفاق في السودان، فإن اسم جاره أبي الحسن قد دوت عبر أطراف إفريقيا والأندلس ولهذا كان من الطبيعي أن تنشأ بين المملكتين علاقة قائمة على أساس الاحترام المتبادل المصالح المشتركة³، وصاحب هذه العلاقات السياسية الودية انتقال بعض المؤثرات والتنظيمات الإدارية المرينية إلى دولة مالي فكان بهذه الدولة الوزراء والقضاة والكتاب والدواوين، والجيش الذي وصل عدد الجند فيه إلى مائة ألف⁴.

دامت العلاقة بين المغرب ومالي قرابة ثمانين عاماً، وامتازت بتبادل السفارات وحسن الجوار بين الدولتين، فقد احترمت كل واحدة منهما سيادة الأخرى على أراضيها، ومن تأثير

¹ - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 222.

² - القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 298.

³ - عبد الهادي تازي، التاريخ الدبلوماسي المغرب من أقدم العصور إلى اليوم: عهد بني مرين والوطاسيين، مج 7، المحمدية، المغرب، مطابع فضالة، 1408هـ/1988م، ص ص 38-39.

⁴ - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 222.

هذه العلاقات تشجيع الكثيرون على السفر وتعرف أبناء القطرين كل منهما على وضعية الآخر ومشاغله وأحواله، ووظف ملوك مالي المغاربة والمصريين في بلاطهم، وازدهرت الزراعة وكذلك قدموا طلبة من المغرب للدراسة بعاصمة مالي وكانوا يقطنون في حي خاص ببني جلدتهم¹، ورحلة السودانين لطلب العلم ظاهرة عادية في علاقات ثقافية بين إمبراطورية مالي وبلاد المغرب، على أن المصادر خاصة كتب التراجم والحواليات التاريخية المغربية كما يذكر أحمد الشكري فإنها لم تترجم لأي شخصية سودانية دخلت فاس أو غيرها من المدن المغربية قبل منتصف القرن التاسع الهجري².

تمسك ملوك بني مرين بعلاقات ود وإخاء مع حكام مملكة مالي، وتراوحت العلاقات السياسية بين الدولتين بين الحذر والود من خلال تبادل الهدايا والسفارات، التي أسهمت بشكل أو بآخر في تطوير العلاقات السياسية التي كانت قائمة بينهم، كما كان للعامل الجغرافي دور إيجابي في تطوير العلاقات بينهما.

¹ - محمد الغربي، المرجع السابق، ص 51.

² - أحمد الشكري، المرجع السابق، ص 255.

المبحث الثاني: العلاقات الاقتصادية والنشاط التجاري المريني المالي

نظرا للقرب الجغرافي بين الدولة المرينية ومملكة مالي، وغياب أية حواجز طبيعية بينهما، أدى هذا الأمر إلى ارتباط الدولتين ببعضهما البعض، بفضل شبكة من الطرق¹ والمسالك التجارية، التي ربطت بلاد المغرب الأقصى ببلاد السودان الغربي منذ العصر القديم، ولهذا حرصت كل الدول التي تداولت على حكم المغرب الأقصى على أن تظل هذه الطرق التجارية نشطة، لذا عملت على تأمينها وحمايتها بالتعاون مع الأنظمة السياسية التي توالى على حكم بلاد السودان الغربي.

أولاً: المسالك التجارية بين الدولتين:

1- الطريق الساحلي:

يعتبر من بين أقدم الطرق التجارية استعمالاً، ينطلق من درعة نحو نول لمطة في جنوب السوس الأقصى على الساحل الأطلسي للمغرب الأقصى، لیتجه جنوباً نحو مملحة أوليل² قرب مصب نهر السنغال في منطقة الترازو بموريتانيا الحالية³، والتي قال عنها بن حوقل "أوليل معدن الملح ببلاد المغرب بينها وبين أودغست شهر، ومن أوليل إلى سجلماسة راجعاً إلى الإسلام

¹ - الطريق: هو المسافة الفاصلة بين مركزين تجاريين أو أكثر، وكانت تتخلل تلك الطرق مواضع تساعد على تحديد معالمها، كنقاط المياه أو قرى تستريح فيها القوافل ويجدد أصحابها مؤنثهم أو أدواتهم كالقرب والحبال وغيرها، وكل طريق يتشكل من مجموعة من المسالك المتوازية، تفصل بينها أحياناً عدة كلومترات، لكنها تلتقي عند نهاية كل مرحلة من مراحل الطريق. ينظر: النابي ولد الحسين، صحراء الملثمين: دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط من منتصف القرن 2هـ/8م إلى نهاية القرن 5هـ/11م، تقديم محمد حجي، دار المدار الإسلامي، لبنان، ط1، 2007، ص 270.

² - أوليل: تقع على مقربة من الساحل، وبها الملاحة المشهورة ولا يعلم في بلاد السودان ملاحه غيرها، ومنها يحمل الملح إلى جميع بلاد السودان، وذلك أن المراكب تأتي إلى هذه الجزيرة فتسوق بها الملح، وتسير منها إلى موقع النيل، وبينهما مقدار مجرى فتجري في النيل إلى سلا وتكرور وبريس وغانا وسائر بلاد ونقارة وكوغه وجميع بلاد السودان. ينظر: أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص 18.

³ - النابي ولد الحسين، المرجع السابق، ص 271.

شهر وكسر، ومن سجلماسة إلى لمطة معدن الدرق اللمطية عشرين يوماً، ومن أوليل إلى لمطة خمسة وعشرون يوماً ودون لمطة من بلاد المغرب تاملت وعلى جنوبها أودغست¹، ويبلغ طول مسافة هذا الطريق 1.600 كلم كانت القوافل تقطعه بعد مسيرة شهرين²، أما بالنسبة لجزيرة أوليل فهي في البحر وعلى مقربة من الساحل وبها الملاحة المشهورة ولا يعلم في بلاد السودان ملاحه غيرها ومنها يحمل الملح إلى جميع بلاد السودان³.

تقع مدينة نول لمطة ببلاد السوس، وهي مدينة كبيرة في أول الصحراء على نهر كبير يصب في البحر المحيط، ومن مدينة نول وادي درعة نحو ثلاث مراحل، وسميت بنول لمطة نسبة لقبيلة لمطة التي سكنتها، ومن أراد الدخول إلى بلاد السودان غانا وغيرها عن طرق وادي درعة، عليه أن يمشي من وادي درعة نحو خمسة مراحل إلى وادي ترجا في أول الصحراء⁴.

ومشكلة الطريق الساحلي هي قلة الآبار وندرة المراكز الحضرية على طولها، وإن كانت محاذاته لساحل المحيط الأطلسي قد ساعدت في تلطيف درجات الحرارة في المناطق التي يعبرها⁵، كما أن القوافل التجارية تسير في أرض صلبة عبارة عن صخر يصعب حفره بالمعاول، إلى درجة أنه في حال وفاة شخص ما من التجار أو أفراد القافلة، فإنه لا يدفن بسبب صعوبة حفر القبر، فكانوا يكتفون في هذه الحالة بستره بالحطام والحشائش أو يقذفونه في البحر، وعلى الرغم من قلة المياه وعدم وجود آبار على طول هذا الطريق، وتأثير ملوحة المحيط على المناطق التي يخترقها، فإن البكري يذكر بأن مستخدميه كانوا يحصلون على الماء العذب متبعين طرقاً لم

¹ - أبو القاسم محمد ابن حوقل النصيبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1992م، ص 91.

² - النائي ولد الحسين، المرجع السابق، ص 271.

³ - البكري، المصدر السابق، ص 17.

⁴ - مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار في وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية، بغداد، د.س.ن، ص 213.

⁵ - النائي ولد الحسين، المرجع السابق، ص 271.

يحددها، يعتقد بأنها كانت بإيحاء من الأدلاء العارفين لأسرار المنطقة، حيث يذكر البكري في هذا الصدد " وإنما يشربون في طريقهم من قلات يحتقرونه...فتنبض ماء عذبا"¹.

لذا يرى بعض الباحثين مثل راييموند موني (R.Mauny) بأن هذا الطريق الساحلي لم يكن له دور تجاري مهم خلال العصور القديمة والوسيطة ولا حتى الحديثة، ولم يكتسب أهمية إلا بعد وصول الأوربيين إلى شواطئ إفريقيا الغربية، لكن الباحث عبد العزيز العلوي يرى عكس ذلك تماما فقد كان هذا الطريق مهما خلال مراحل التجارة الصحراوية المختلفة، بداية من قيام دولة المرابطين والازدهار الذي عرفته دولتهم، كما استفاد من الازدهار التجاري لمملكة تكرر، لأن الملح الذي كانت توفره مملحة أوليل للقوافل أعطى لوحده أهمية لهذا الطريق الساحلي².

2- طريق سجلماسة-تغازة³-السودان:

يبدأ من سجلماسة ليتها جنوبا نحو مناجم الملح بتغازة، ولم يقدم البكري وصفا تفصيليا لهذا الطريق، فاكتفى بتحديد موقع تغازة بأنها "تقع على يمين من المجابة الكبرى وبينها وبين سجلماسة عشرين يوما، ويتجهز بملحها إلى سجلماسة وغانا وسائر السودان"⁴، ويذكر دفيس (Devisse) بأن نهاية هذا الطريق كانت مباشرة في غانا⁵.

¹ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 160-161.

² - نقلا عن الناني ولد الحسين، المرجع السابق، ص 272.

³ - تغازة: مكان مأهول فيه عدد من مناجم الملح التي تشبه مقالع الرخام يستخرج الملح من حفر تحيط بها أكواخ عديدة يسكنها المستخدمون لاستخراج هذا الملح. ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 108.

⁴ - البكري، المصدر السابق، ص 157

⁵ - عمرو منصور، ذهب غرب إفريقيا وعروش الدول الإسلامية من سحر القيام إلى آلام السقوط 140-628هـ/757-1230م، نور حوران، دمشق، ط1، 2021م، ص 95.

ويعتبر هذا الطريق أهم محور في التجارة الصحراوية، نظرا لقصره ووجود ملاحات تغازة المهمة، ولأنه يؤدي إلى مناجم الذهب في السنغال والنيجر الأعلى، فقد طانت تغازة مركزا تجاريا مهما لتجارة الذهب الذي تتم مبادلته بالملح¹.

3- طريق فاس-سجلماسة وتوات-تنبكت:

ينطلق هذا الطريق من فاس باتجاه سجلماسة في ثلاث عشرة مرحلة²، وذكر الحموي أن بين سجلماسة وفاس عشرة أيام، وهي في منقطع جبل درن، وبين سجلماسة ودرعة أربعة أيام وأهل هذه المدينة من أغنى الناس³، وتعتبر مدينة فاس محطة رئيسية للقوافل المتجهة نحو الصحراء، وهو من الطرق التي يوجد فيها عدد من الآبار، وقد أوضح الوزان شكل الآبار، بأنها مكسوة بجلود الإبل ومبنية بعظامها، وذكر أن التجار يسافرون على هذا الطريق في فصل الشتاء فقط، نظرا لأن هناك رياح تهب على المنطقة، وتحمل معها الأتربة التي تغطي آبار المياه، وبذلك يموت المسافر في هذا الطريق عطشا، لأنه لا يستطيع أن يهتدي إلى مكان البئر⁴.

4- طريق سجلماسة-أودغست:

ينطلق هذا الطريق من سجلماسة إلى أودغست مسافة شهرين فتقع منحرفة محاذة عن السوس الأقصى⁵، ومن أودغست إلى تامدلت مسافة أربعين مرحلة، ومن تامدلت إلى سجلماسة إحدى عشر مرحلة، وبين أودغست ومدينة القيروان مائة مرحلة وعشر مراحل⁶.

¹ - الناني ولد الحسين، المرجع السابق، ص 162.

² - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 90.

³ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج 3، دار صادر، د س، د ب، ص 19.

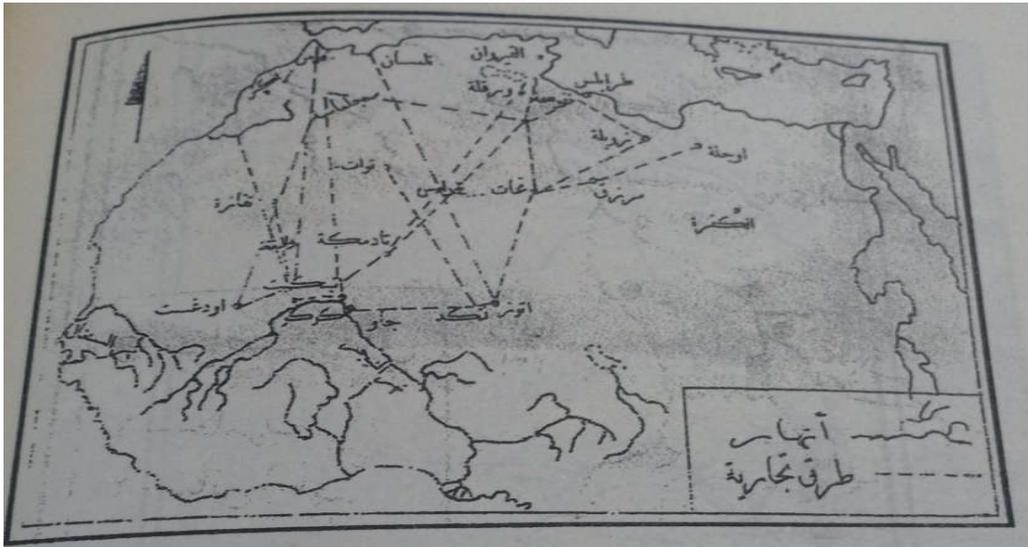
⁴ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 163.

⁵ - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 91.

⁶ - البكري، المصدر السابق، ص 159.

5- طريق واد درعة-الصحراء- بلاد السودان

ينطلق هذا الطريق من المنطقة المحيطة بوادي درعة، ومنه يتجه إلى وادي تارجا (الساقية الحمراء)، ويصل طول مسافة هذا الطريق ما بين أربعين إلى خمسين يوماً، لو كان هذا الطريق مستغلاً عند بداية الفتح العربي الإسلامي لشمال إفريقيا، واستفاد هذا الطريق من مروره بمملحة تغازة، وبالرغم من أهمية هذا الطريق إلا أن مشكلته هي ندرة المياه، فكانت القوافل تسير في المجابة الكبرى مدة ثمانية أيام دون أن تجد قطرة ماء، فلم يوجد على طول الطريق من درعة لغاية الصحراء سوى أربع آبار، هي تزامت، بئر الجمالين، ناللي وبئر ينتسر، والمسافة من درعة غلى الصحراء عند قرية مدوكن الصنهاجية قدرت بـ 550 كم، ومن هذه القرية يواصل الطريق سيره لغانة¹. ومن الصحراء إلى بلاد السودان لم يذكر البكري تفاصيل كثيرة عن هذا الطريق، فقال عنها "ثم تمشي في الصحراء فتجد الماء على اليومين والثلاثة ولكنه ذكر بعض الآبار التي توضح أن الطريق لا يعاني من الجفاف الشديد، وأكبر مسافة دون ماء على هذا الطريق هي المجابة الكبرى، حيث لا يوجد ماء بها لمدة ثمانية أيام"²، خريطة الطرق التجارية لمملكة مالي³



¹ - الناني ولد الحسين، المرجع السابق، ص 279.

² - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 164.

³ - المرجع نفسه، ص 480.

ثانيا: المراكز التجارية المرينية والسودانية:

حرصت الدولة المرينية على السيطرة على المدن والمراكز التجارية الواقعة بينها وبين بلاد السودان الغربي، لما لهذه المراكز من أهمية في السيطرة على النشاط التجاري بين المنطقتين خاصة تجارة الذهب؛ التي كان تدر مداخيل كبيرة على خزينة الدولة المرينية، وتتفاوت هذه المراكز من حيث الأهمية، وتأتي على رأسها مدينة سجلماسة التي تعتبر بوابة تجارة معدن الذهب.

1- المراكز المرينية:

سجلماسة:

تعتبر بوابة الصحراء وجاء ذكرها في العديد من المصادر الجغرافية نظرا لدورها في التجارة الصحراوية، وهي "مدينة كبيرة كثيرة العامر وهي مقصد للوارد والصادر، كثيرة الخضر والجنات زائفة البقاع والجهات ولا حصن عليها وإنما هي قصور وديار وعمارات متصلة"¹، ذكرها القلقشندي "ولها متاجر إلى بلاد السودان، يخرجون إليها بالملح والنحاس والودع، ويرجعون منها بالذهب التبر"².

بدأت سجلماسة مرحلة التوسع والازدهار في عهد أبي المنتصر اليسع (174هـ/790م) تمكنت من ضم درعة، وبدأت تقوم بدورها الطبيعي في خدمة التجارة واستقبال القوافل من كل أنحاء المغرب والمشرق الإسلاميين، وساعدها موقعها وخصوبة أرضها على تحمل الحركة التجارية، وتوفير متطلبات القوافل الداخلية والخارجة من السودان، وجعلت هذه الامتيازات من سجلماسة أم البلدان المجاورة لحدود السودان الغربية، وتوثقت علاقتها بالدول التي جاورتها، لتسير انتقال القوافل، فانظم طريق القوافل من سجلماسة إلى وارجلان، والقيروان، كما ارتبطت بعلاقات متينة مع المراكز التجارية بالسودان الغربي، فكانت القوافل تنقل البضائع المغربية إلى السودان الغربي، وتأتي بالبضائع السودانية كالذهب والتوابل وغيرها، وبذلك

¹ - الإدريسي، المصدر السابق، ص 225.

² - القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص 261.

انعكس على أهل سجلماسة، فازداد ثراؤهم بسبب تجارتهم مع السودان الغربي، وكانوا حلقة وصل بين هذه المناطق وغيرها¹.

وكان للازدهار الذي عرفته مدينة سجلماسة في القرن السابع هجري الثالث عشر الميلادي في أثره في أن أصبحت هذه المدينة قبلة لعدد كبير من التجار الذين قدموا إليها من مختلف مناطق بلاد المغرب²، وتعتبر شركة المقرين بسجلماسة وتلمسان وولاته التي أسست في خلال هذا القرن واستمرت إلى ما بعد نهاية النصف الأول من القرن 8هـ/14م نموذج التنظيم الكبير الذي عرفته التجارة الصحراوية، ونالت أسرة المقرى التلمسانية شهرة كبيرة بفعل ممارستها للعمل التجاري والأرباح التي تراكت لديها نتيجة ذلك، وقد كانت هذه الأسرة على علاقة طيبة بسلاطين تلمسان وفاس³.

وتكونت شركة المقرين من خمسة إخوة نظموا شؤون عملهم التجاري أحسن تنظيم فيما يشبه الشركة أو البيت التجاري، واتفقوا على تقسيم العمل بينهم، ويقضى هذا التقسيم بأن يقيم اثنان منهم في مدينة تلمسان التي كانت مناء تجاريا مزدهرا، ويقيم الاثنان الآخرون في مدينة إيالاتن، أما الخامس فاتفق على أن يكون مقره مدينة سجلماسة وهو كبيرهم، وكانت سجلماسة أهم نقطة في نهاية طرق القوافل من ناحية الشمال، وكان التواصل بين الإخوة يتم عن طريق المراسلة، فكانت مهمة المقيمين في تلمسان استقبال السلع الأوروبية المطلوبة في بلاد السودان، وتصديرها إلى المقيمين في إيالاتن لتسويقها في بلاد السودان، ومن ناحية أخرى يصدران السلع السودانية من العاج والذهب⁴.

¹ - الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص ص 302-303.

² - حسن حافظي علاوي، سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن من الهجري إلى الرابع عشر ميلادي، المملكة المغربية، 1997م، ص 367.

³ - المرجع نفسه، ص ص 368-369.

⁴ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 200.

وهكذا فإن مدينة سجلماسة تعتبر نقطة الانطلاق الرئيسية للقوافل من جنوب المغرب الأقصى نحو الصحراء، وأهم مركز تجاري مغربي في تجارة الذهب القادم من مملكة مالي عبر الطريق التجاري الغربي الذي يشمل سجلماسة ولاته مالي، وتحكم المرينيين في هذا الطريق عاد عليهم بالنفع المادي جراء الضرائب التي أخذوها، وقيامهم بدور الوسيط بين المصدرين للذهب والمستوردين له من تجار أوروبا¹.

وبالتالي تعتبر سجلماسة من أهم المراكز التجارية الشمالية لما كانت تقدمه للتبادل التجاري بين الشمال وبلاد السودان، واكتسبت أهميتها كممر تجاري هام للقوافل الصحراوية، كما أنها اشتهرت أيضا ببعض المنتجات الفلاحية دون غيرها من مناطق بلاد المغرب، فقد كان لها دور هام في التجارة مع بلاد السودان وباقي المدن المغربية، لذا احتكرت طيلة العصر الوسيط تجمع القوافل التجارية المغربية المتوجهة إلى بلاد السودان الغربي، لكنها بدأت فقدت أهميتها التجارية ابتداء من القرن (9هـ/15م) وتخلت عنها لصالح منطقة وادي نون ودرعة وسوس لقلة اهتمام ملوك فاس بها².

فاس:

يصفها ابن حوقل خلال القرن (4هـ/10م)، بقوله: "مدينة جليلة يشقها نهر وهي جانبان يليهما أميران مختلفان، وبين أهل الجانبين الفتن الدائمة والقتل المتصل، وهي خصبة مفروشة بالحجارة أحدثها إدريس بن إدريس، في كل يوم من أيام الصيف يرسل مدينة في أسواقها من نهرها الماء فيغسلها فتبرد الحجارة وجميع ما بها من الفواكه والغلات والتجارات والمرافق والحمامات"³، ومدينة فاس "كثيرة الخصب والرخاء، ولها أقطار واسعة متصلة العمائر،

¹ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 95.

² - المرجع نفسه، ص ص 158-159.

³ - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 89.

وهذه المدينة قسبة بلاد المغرب، بل وبلاد المشرق الأندلس، ومنها يتجهز إلى بلاد السودان وإلى بلاد المشرق، ومنها يحمل النحاس الأصفر إلى جميع الأفاق"¹.

وأضاف الزهري "وهي دار مملكة يقصدها الناس من جميع الأقطار، وإليها يجلب من جميع الأقاليم كل شيء حسن من المتاع والسلع غالية الأثمان من اليمن والعراق والشام والأندلس"²، وهي معروفة بأسواقها وحماماتها وأنهارها³، و"سكنها جملة من أصناف الناس وأهل الكور والأمصار، وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية، فليس من أهل بلد ولا إقليم إلا ولهم بها منزل ومتجر وصناعة ومتصرف، واجتمع فيها ما ليس في مدينة من بلدان الدنيا، وأنتها التجارات وأهل الصناعات من كل صقع حتى تكامل بها كل متجر، وسيقت إليها خيرات أرض، وجمعت فيها ذخائر الدنيا، وتكاملت فيها بركات العالم"⁴.

فهذا ما يوضح على أن المدينة كثيرة الخيرات سواء المنتج فيها أو المجلوب إليها ومن ثم ينقله التجار إلى مختلف البلاد إلى بلاد السودان وإلى بلاد المشرق، وهذا ما يؤكد وجود علاقات تجارية واسعة لفاس، وأنها كانت محط أنظار التجار من جميع البلدان لذلك قصدوها بقوافلهم التجارية وتحملوا مشاق السفر وبعد المسافات، وجلبوا لها مختلف الأمتعة والبضائع الغالية ليتاجروا، وهكذا ارتبطت فاس بعلاقات تجارية مع أقاليم المشرق العراق والشام واليمن ومع الأندلس أيضا، وهذا مما أدى إلى انتعاشها اقتصاديا وارتفاع مستوى المعيشة بها⁵.

¹ - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 181.

² - محمد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، د.س.ن، ص 11.

³ - نقولا زياده، أفريقيات دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، الرياض الريس لكتابة والنشر، ط1، 1991م، ص 11.

⁴ - علي الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط1، 1991م، ص 39.

⁵ - بان علي محمد البياتي، النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال (القرن 3-5هـ / 9-11م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، 2004م، ص 69.

مراكش:

تعتبر مراكش من أكبر مدن المغرب الأقصى، كانت تحتوي على عدد كبير من القصور، كما كانت أزقتها واسعة ورحابها فسيحة ومبانيها سياسية وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة¹، وأهلها أفضل الناس وأرق أهل المغرب نفوساً وأصلحهم نية، والورد عندهم كثير يقطر ويجلب إلى جميع بلاد المغرب، ومنها يجلب الزيت إلى فاس وغيرها والنحاس والسكر²، ومدينة مراكش أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعشاب وفواكه وجميع الثمرات، وأكثر شجرها الزيتون ففي مراكش اليوم من الزيتون والزيت ما تستغنى به عن غيرها من البلاد وتميز بلاد كثيرة، وزيتونها أكثر من زيتون مكناسة وزيتها أرخص وربما أطيب³، وبها كثير من دكاكين الصناعات والباعة ولاسيما حاكة قماش القطن وسكانها وسعوا الثراء⁴.

ومنطقة مراكش كانت قبل بناء مدينة مراكش مخاضة يقطع فيه اللصوص على القوافل كان إذا انتهت القوافل إليه قالوا مراكش مضاد بالبربرية أسرعوا المشي ثم بنى يوسف بن تاشفين مراكش وجعل فيها الأرجاء وأحدث فيها الجنات وأكثر من الحمامات والخانات والرياض، لكن مع ذلك يتبين بأن مراكش لم تستطع منافسة المراكز التجارية الأخرى⁵.

أغمات:

تقع أغمات بعد 30 كم من مراكش بالقرب من واد درعة، بينها وبين نفيس مرحلة، وأهلها تجار مياسير يدخلون بلاد السودان بقناطير الأموال من النحاس الملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار وضروب الأفايه والعطر وآلات الحديد المصنوع، ولم يكن في دولة الملتهمين أكثر أموالاً منهم، ولأبواب منازلهم علامات

¹ - الإدريسي، المصدر السابق، ص 23.

² - الزهري، المرجع السابق، ص 116.

³ - مجهول، المصدر السابق، ص 210.

⁴ - حسن زناتي، المرجع السابق، ص ص: 539-540.

⁵ - بان علي محمد البياتي، المرجع السابق، ص 71.

تدل على مقادير أموالهم، وتغيرت بعد تلك أحوالهم لإتيان المصامدة على أكثر أحوالهم، وفيهم مع هذا نخوة واعتزاز وبها ضروب من الفواكه وأنواع من النعم¹.

سكنها الأعيان وعلية القوم، كما كانت محطة استراحة للتجار الراغبين في السفر إلى الصحراء بغرض التجارة "لأنها كانت دار التجهز للصحراء"²، لذا تكثر بها الأسواق كسوق جامعة وسوق آغمات وسوق وريكة الذي يقام يوم الأحد، ويذبح فيها أكثر من مائة ثور وألف شاه وينفذ ذلك في ذلك اليوم³.

تغازة/ تغازى:

تغازى وضبط اسمها بفتح التاء المثناة والغين المعجم وألف وزاي مفتوحة أيضا، "وهي قرية لا خير فيها، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح، وسقفها من جلود المجال، ولا شجر بها، وإنما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض يحمل الجمل منها لوحين، ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح"⁴.

كما ذكرها القزويني، بقوله: "بلدة في جنوبي المغرب بقرب البحر المحيط، فيها ذكر أن جميع ما حول هذه المدينة من الأراضي سبخة وفيها معدن الملح والشب وإذا مات بها شيء من الحيوان يلقى في الصحراء فيصير ملحا، والملح بأرض السودان عزيز جدا، والتجار يجلبونه من تغازة غلى سائر بلادهم ويبتاع كل قر بمائة دينار"⁵، كما قال عنها السعدي: "وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغاز وأرباب الذهب من معدن

¹ - محمد بن المنعم الحميري، *الروض المعطار في خبر الأقطار*، تحقيق إحسان عباس، طبع على مطابع هيدلبرغ، لبنان، ط1، 1985، ص46.

² - مجهول، المصدر السابق، ص 207.

³ - أبو عبيد عبد الله البكري، *المسالك والممالك*، ج 1، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ص 339.

⁴ - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص 239-241.

⁵ - القزويني، المصدر السابق، ص ص 25-26.

بيط وكلا المعدنين ما كانت مثلهما في الدنيا كلها فوجد الناس بركتها في التجارة إليها كثيرا وجموا فيها من الأموال مالا يحصيه إلا الله سبحانه ومن أجل هذه المدينة المباركة تأتي الرفاق من جميع الآفاق"¹.

ويوجد بتغازة العديد من مناجم الملح الحجري، وهذه المناجم تشبه مقالع الرخام، "ومنها يحمل إلى تمبكت التي يعوزها كثيرا، ويحمل الملح على الجمال كل جمل يحمل أربع قطع منه، وليس للعاملين في ملح تغزة قوت إلا ما يحمل إليهم من تمبكت ودرعة، وكلاهما على مسيرة عشرين يوما من تغزة"²، وظلت تغازة المصدر الرئيسي للملح لعدة قرون، ولم تدخل تحت سيطرة أحد، بل كانت تحت سيطرة قبيلة مسوفة الصنهاجية، فقد كان العبيد التابعون لها يقومون بتعدين الملح بها. وبلغ من أهمية ملح تغازة أنه كان يستخدم كقوة شرائية³، وأكد ابن بطوطة على ذلك، بقوله: "وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة، ويقطعونه قطعاً ويتبايعون به"⁴.

درعة:

وصفها البكري في كتابه "يقال لها يتومين، وهي قاعدة درعة، وقد تقدم ذكر وادي درعة، وأن منبعه من جبل درن، وهذه المدينة أهلة عاملة بها جامع وأسواق جامعة ومتاجر راحة وهي في شرق من الأرض"⁵، ودرعة مدينة كبيرة كثيرة الأهل وفيها معدن الفضة⁶، وأكثر ما يسافر به تجار الغرب الأقصى إليها الصوف، والنحاس والخرز، ويخرجون منها بالتبر والخدم⁷.

¹ - السعدي، المصدر السابق، ص ص 11-12.

² - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص ص 108 - 109.

³ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 206.

⁴ - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 241.

⁵ - البكري، المصدر السابق، ج 4، ص 141.

⁶ - أبو القاسم عبيد الله بن خرداذبة، المسالك والممالك، دار صادر أفست ليدن، بيروت، 1889، ص 88.

⁷ - القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 286.

وتعرف درعة بواديها نهر كبير يجري من المشرق إلى المغرب ومنبعه من جبل درن، وعليه عمارة متصلة نحو سبعة أيام وفيها أسواق حافلة كثيرة، فيها يوم الجمعة أسواق في مواضع كثيرة متقاربة وربما كان سوقان في يوم واحد من المواضع النائية وكذلك في سائر البلاد، وعليه الجنات الكبيرة فيها جميع الفواكه من النخل والزيتون وغيرها، والحناء بدرعة كثيرة ومنها تجلب إلى جميع البلاد لطبيها، وله مزية في البيع على سواها، وشجر الحناء بها شجر كبير يحتمل أن يرقى فيها الرافى¹.

2- المراكز التجارية السودانية:

إيولان/ولاته:

شكلت ولاتة بحكم موقعها على الحدود بين الصحراء وبلاد السودان محطة مهمة للتجارة منذ العهد الوسيط، ونقطة جذب للتجار البربر والعرب والزنوج سكانها الأصليين، وكل هذه العناصر البشرية انصهرت في عملية ثقاف فريدة، ما جعل من إرثها الثقافي متنوعا، فأخذت الثقافة السودانية والعمارة المغربية، ويتضح ذلك في الفنون الزخرفية ونمط عيش أهلها، فتحولت من قرية سودانية وثنية "بيرو" إلى مدينة قوافل "إيولان" يؤمها التجار المسلمون الوافدون من بلاد المغرب، وتحول اسمها إلى "ولاتة" بداية من القرن (6هـ/13م)، ومع نهاية العصر الوسيط تحولت إلى ملاذ للنخب السودانية الهاربة من ظلم بعض سلاطين السودان بتنبكت².

أما عن مكانتها الاقتصادية فقد بدأت إيولان تحتل مكانها كمركز تجاري على طريق الصحراء الجنوبي بعد سقوط إمبراطورية غانة وقيام ملكة مالي التي ضمتها إلى حدودها، وأدت إيولان الدور نفسه الذي كانت تقوم به أودغشت في عهد إمبراطورية غانة، إذا اتجهت إليها

¹ - المجهول، المصدر السابق، ص ص 206-207.

² - أحمد مولود ولد أيده الهلال، مدن موريتانيا العتيقة قصور ولاته وودان وتيشيت وشنقيط، تقديم عبد الودود ولد الشيخ، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2014، ص 83.

القوافل عبر المنطقة الغربية من الصحراء الكبرى، وارتبطت بعلاقات تجارية مع تنبكت وبقية المراكز الأخرى¹، وازدهرت بها تجارة الملح الذي كان يباع الحمل منه بعشرة مثاقيل إلى ثمانية، وبينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين كاملين، وبينها وبين مالي مسيرة أربعة وعشرين يوماً، وكانت مدينة إيولاتن محطة للقوافل القادمة من سجلماسة وأودغست².

ومنذ القرن 7هـ/13م تشكل محور تجاري بالغ الأهمية مثلت ولاته محطة رئيسية فيه، ارتبطت فيه لمدينة ميمة ثم مدينة نياني عاصمة مملكة مالي، وعندما ازدهرت تنبكت صار له فرع آخر عبرها نحو جني، فأصبحت ولاته من أهم المدن الفاعلة في الأنشطة الاقتصادية بالنيجر الأوسط، وتمازجت بها العادات الصحراوية بالعادات السودانية والعكس، وابتداء من القرن 8هـ/14م أصبحت ولاته تمارس دوري أودغشت وغانة، فهي أول مدينة سودانية ومعبر للقوافل المتجهة إلى مختلف المدن السودانية، ومسكن الكثير من الجاليات المغاربية، ومركز ثقافي يضم القضاة والفقهاء يهتم بتعليم القرآن والمعارف الدينية³.

وأهلها موقعها الاستراتيجي كمعبر للقوافل ومحطة لها على امتلاك ثروة كبيرة لأنها مارست دور الوسيط في تجارة الذهب والملح، ومعبر لركب الحج السوداني، وتواصل ازدهار ولاته فلم تتأثر بسقوط مملكة مالي وسيطرة توارق مغشرن عليها، ولا بهجمات قبائل الموسي سنة 885هـ/1480م، فجذبت التجار السودانيين إليها، كما قصدها تجار المغرب الإسلامي (أوجلة، فزان، غدامس، توات، درعة، فاس، شنقيط...)، وهكذا توسعت المدينة مع القرن

¹ - الهادي مبروك الدالي، التاريخ السياسي، ص 306.

² - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 223.

³ - حسين بويدي، الحواضر السودانية الفاعلة في العلاقات بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي (1)، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، 2021/2020، منصة التعليم عن بعد، ص 4. الرابط الإلكتروني:

<https://elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727>

(10هـ/16م) خاصة وأنها كانت معبر ملح إيجيل إلى المناطق السودانية يُحمل إليها من تيشت ومنها إلى تنبكت، لكن مع نهاية القرن العاشر الهجري تراجع دورها الاقتصادي¹.

نياني:

تقع مدينة نياني على ملتقى نهر النيجر بفرعه سنكارن، وهي حاضرة مملكة مالي ، كانت نياني من المراكز التجارية المزدهرة في مملكة مالي، حيث كانت تقصدها قوافل التجارة القادمة من المغرب وتتبع أهمية مدينة نياني تجريا كونها تقع بالقرب من مناجم الذهب، مما أضفى عليها أهمية كبيرة².

تنبكت:

تعتبر من أهم المراكز التجارية، وقد أنشأت في آخر القرن الخامس الهجري سنة 490هـ/1096م على يد تواق مغشرن في عهد الأمير يوسف بن تاشفين³، كما أكد ذلك السعدي في قوله: "نشأة على أيدي توارق⁴ مقرن في أواخر القرن الخامس من الهجرة"⁵، تقع على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى كما يعرف بمنحنى نهر النيجر، وتعتبر حلقة وصل بين السودان الغربي والصحراء الكبرى، وهي قريبة من النيجر حيث يبعد عنها في فصل الصيف ستة عشر ميلا، أما في الخريف فإن ماء النهر يصب منها فيصل إلى قرية بكير وتبعد عن

¹ - حسين بويدي، المرجع السابق، ص 5.

² - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 211-212.

³ - عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا 430-515هـ/1038-1121م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م، ص 163.

⁴ - التوارق: ينتمون إلى صنهاجة ويرفعون نسبهم إلى حمير ينتمون إلى لتونة وهم ضياع في الصحراء رحالة ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام، وهم على دين الإسلام وأتباع السنة وليس بينهم وبين البربر نسب فقد خرجوا من اليمن وارتحلوا إلى الصحراء وموطنهم بالمغرب. ينظر: السعدي، المصدر السابق، ص 25.

⁵ - المصدر نفسه، ص 20.

تنبكت سبعة أميال، وتبعد عن قرية ولاته خمسة وعشرون يوما، وأن بعدها عن جاو نحو اثني عشر مرحلة عن جهة الشرق وعن قرية بوجيه نحو خمس مراحل¹.

وصفها الحسن الوزان قائلا: "بها دكاكين كثيرة للصناع والتجار ولا سيما دكاكين نساجي أقمشة القطن، وتصل أيضا إلى تنبكتو أقمشة أوروبا يحملها تجار بلاد البربر"²، حيث مثلت التجارة الشريان المريني للحياة الاقتصادية في تنبكتو، فقد توافد الناس عنها من كل درب وصرب وخاصة من الشمال الإفريقي عبر الصحراء الكبرى، فقد كان التجار يتوافدون إلى ولاته قبل ازدهار تنبكتو، أما في المغرب الأقصى فكان تجار سجلماسة وفاس والسوس يحملون بضائعهم إلى تنبكتو، وفي المقابل يعودون محملين بالسلع سالفة الذكر، كما توافد عليها تجار من توات وتعتبر نقطة تموين القوافل القادمة من الشمال الإفريقي وخارجة منها، كما توافد عليها التجار من درعة وجاو وجنى، كما ساعد ظهور الإسلام فيها على جعلها بهذه العظمة³.

ومع القرن 8هـ/14م بدأت تكسب أهميتها ضمن حواضر مملكة مالي، وورثت بالتدريج التراكمات الحضارية التي جمعتها المدن الواقعة إلى الغرب منها، إذ دفع غياب سلطة سياسية قوية في المجالات الصحراوية وبداية وصول قبائل بني حسان إلى المنطقة العديد من المثلثين إلى الاقتراب من مناطق السودان، لتمثل تنبكت مدينة صنهاجية داخل المجال السوداني اختلطت بالعناصر السوننكية والمالنكية، وورثت عن الحواضر الصحراوية الخبرة التجارية، والتقاليد العلمية، فلم تخرج إمامة المسجد الكبير بالمدينة من أيديهم إلا إلى عبد الله البلبالي (ت بعد 940هـ/1534م)، كما زارها منسا موسى عند عودته من الحج سنة 725هـ/1324م وضمها للمملكة مالي، وعين عليها واليا من قبله، متيحا لها حرية أكبر في تنشيط تجارتها مع مختلف الحواضر السودانية، فأصبحت تنبكت محطة مهمة في طرق القوافل التجارية، لذا ظهرت في

¹ - الهادي مبروك الدالي، مملكة مالي، ص ص 92-93.

² - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص ص 165-166.

³ - الهادي مبروك الدالي، مملكة مالي، المرجع السابق، ص 97.

الخريطة الملاحية لأنجيلو دوسارت باسم (Tenbuch) سنة 740هـ/1339م، كما ظهرت في خريطة الميورقي اليهودي إبراهيم كريسك (Cresques Abraham) سنة 777هـ/1375م، فقصدها التجار المغاربة واستقروا بها وكونوا جاليات بها أهمها التواتية والغدامسية خاصة¹.

فقد بلغت القوافل التي وفدت إليها من الشمال الإفريقي سنة 751هـ/1350م اثنا عشر ألف جمل، وحما زاد في أهميتها كمركز تجاري وسوء كبير في بلاد السودان الغربي أنها إلى جانب كونها ملتقى الطرق البرية والنهرية، فإنها تتحكم في أهم الطرق البرية والتي كانت كالآتي:

● الطريق من المغرب الأقصى والمار بسجلماسة وتوات إلى تنبكت.

● الطريق من تغازة والمار بولاته إلى تنبكت.

لقد ازدهرت بها التجارة حتى أصبح تجارها يحظون بمكانة مرموقة حيث كثيرا ما كانت تحدث مصاهرات بين أمرائها وتجارها².

لقد مثلت التجارة المصدر الرئيسي في حياة سكانها، ولذلك اهتموا بها اهتماما كبيرا، وتوافد عليها التجار من داخل السودان الغربي، ومن خارجه وخاصة من الشمال الإفريقي، وفي مقدمتهم أن المغرب وليبيا، فكان تجار سجلماسة وفاس والسوس وغدامس وفزان وطرابلس في حركة دؤوبة معها يحملون معهم بضائعهم، ويعودون محملين بالذهب، والرقيق وناب الفيل، وريش النعام وغيره³.

ومع القرن 9هـ/15م أصبحت تنبكت مركزا بارزا في تجارة الملح القادم من مملحة تغازة، قسم منه ينقل إلى مالي ومن مالي إلى مختلف المدن السودانية جنوبا، وفي المقابل تستقبل تنبكت الذهب السوداني لتتنقله القوافل المغاربية إلى تونس ووهران وهنين وفاس وماسة في السوس وآزبلا وآسفي ومنه إلى الموانئ الإيطالية، كما استفادت من التجارة النهرية، ومن تراجع

¹ - حسين يويدي، المرجع السابق، ص ص 5-6.

² - هواري رضوان، المرجع السابق، ص 193.

³ - الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص ص 307-308.

الطريق البري نحو ولاتة بسبب شح المياه، ومع القرن 10هـ/16م تعافت من أثر غزوات قبائل الموسي ثم من سياسات سني علي 873هـ/1468م بسبب التهجير والجرائم التي ارتكبتها في حق ساكنتها خاصة النخبة منهم، فاسترجعت مكانتها الدينية في عهد الأساكي، وعلى المستوى الاقتصادي احتلت مكانة بارزة في التجارة الصحراوية، وحافظت على دورها في تجارة الملح¹.

غاو/جاو (Gao):

اكتسب جاو/غاو شهرتها الاقتصادية بسبب موقعها الجغرافي عند الطرق التجارية الصحراوية، وتعتبر المركز التجاري الثاني من حيث الأهمية بعد تنبكت، فقد مكنها وقوعها على منحني نهر النيجر نحو الجنوب من الإشراف على حركة الملاحة والتجارة النهرية على امتداد نهر النيجر نحو الجنوب والغرب، ويبدو أنها حافظت على مركزها التجاري في ظل الأسرة الجديدة حتى قامت مملكة مالي الإسلامية، فدخلت جاو تحت طاعتها في الفترة الواقعة ما بين 626-636هـ/1225-1235م، ثم استقلت غاو عن مالي وبدأ عهد توسعها حين تولى الملك سني علي (869-898هـ/1464-1492م) حكم سلطنة سنغاي في مرحلتها الأولى، حيث بدأ في بناء إمبراطوريته التي امتدت حدودها إلى كل المنطقة الواقعة بين دولة كانم في الشرق وحتى ساحل المحيط الأطلسي غرباً².

وصفها الإدريسي بأنها كانت سوقاً عظيماً يقصدها التجار لا سيما المغرب بقوله: "كوغة فإنها على ضفة البحر الحلو، وهي مدينة عامرة لا صور لها وبها تجارات وأعمال وصنائع يصرفونها فيما يحتاجون إليه"³، ومن بين أهم السلع التي اشتهرت بها مدينة جاو، يقول

¹ - حسين يويدي، المرجع السابق، ص ص 6-7.

² - الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص ص 309-310.

³ - الإدريسي، المصدر السابق، ص 27.

صاحب الاستبصار: "وأكثر ما يتجهز إليها بالملح والودع والنحاس المسبوك والتاكوت وهو أنفق شيء عندهم للدبغ به، وحواليها معادن التبر، وهي أكر بلاد السودان ذهباً"¹.

ومع القرن 6هـ/12م فقد أكد الإدريسي على أنها "مدينة كبيرة مشهورة، كثيرة السكان"²، وبعد البحث الأثري تم العثور على المدينتين، غاو القديمة أي المدينة الملكية، وسرناة هي "غاو سني" (Gao Sanny) التي ضمت الجاليات المغربية المسلمة -يرجح بأنها جاليات إباضية- أسهمت في بدور بالغ في تطوير الأنشطة الحرفية بها، ومجموعات مختلفة من السودانيين، وفي هذه المدينة تتركز مختلف الحرف، ومع الوقت تنامي دور غاو التجاري خاصة بعدما تراجع دور كومي صالح بعدما خرب المرابطون أودغشت سنة 446هـ/1054م³.

ومع منتصف القرن 8هـ/15م أصبحت غاو مدينة كبيرة، تواجد بها الكثير من المغاربة، وأصبحت منطلقا للمسلك التجاري المتجه نحو تادمكة-وارجلان-القيروان ومنها إلى بقية مدن المغرب والأندلس، كما أنها ارتبطت بشبكة طرق داخلية مع العديد من مناطق السنغاي والماند، فعرفت توافدا مستمرا إليها للقوافل مما جعل منها مركزا فاعلا في التغييرات الاقتصادية والاجتماعية، واحتضنت جالية مغربية كبيرة، مهدت سياسيا لظهور مملكة سنغاي، وعلى عهدها بلغت غاو أوج عظمتها وقوتها وازدهارها⁴.

وبلغت غاو قدرا كبيرا من الازدهار الاقتصادي في عهد الأسكيا محمد الكبير فقد أصبحت عاصمة مملكة سنغاي وبلغت أقصى اتساع لها على عهد الأساكي، حيث كانت تستقبل القوافل التجارية القادمة من الشرق في طريقها إلى مدينة تنبكت، في الوقت الذي كانت فيه القوافل القادمة إلى تنبكت تنقل كثيرا من بضائعها إلى جاو، علاوة على احتكارها لتجارة القوافل التي تأتي من بلاد الهوسا، كما كانت تعج بالتجار المغاربة القادمين من الشمال

¹ - مجهول، المصدر السابق، ص 222.

² - الإدريسي، المصدر السابق، ص 27.

³ - حسين بويدي، المرجع السابق، ص 7-8

⁴ - المرجع نفسه، ص 9.

الإفريقي، الذين كانوا يتاجرون في مختلف البضائع وعلى رأسها الأقمشة التي يحضرونها من المغرب وأوروبا¹.

جنى (Djenné):

أسست هذه المدينة على نهر النيجر الأعلى، في منتصف القرن الثاني من الهجرة النبوية الشريفة حوالي سنة 800م، وقد ازدهرت على عهد المرابطين بسبب تأمين الطرق التجاري وانتشار الأمن، وامتازت بسعتها، وبأنها سوق عظيمة من أسواق المسلمين، يلتقي فيها التجار من جميع البلاد².

وتعتبر جنى امتدادا للمدينة القديمة القريبة منها "جنو دجنو" (Jenne-jeno) التي يعود تاريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وساعدها موقعها الجغرافي على نهر النيجر من استعماله في التواصل التجاري مع الشمال، والاحتماء به من الأخطار الخارجية خاصة من قبائل الموسي، ومع القرن 4هـ/10م) كانت تستورد الملح من المسلمين، وتوفر لهم الذهب بالمقابل والذي كان يصلها من إقليم الغابات، وهكذا استمرت المدينة في النمو وتأثرت بالعمارة المغربية³.

تقع مدينة جنى إلى الجنوب الغربي من مدينة تنبكت وتبعد عنها بحوالي ستمائة كيلومتر تقريبا، وقد ورد اختلاف في تأريخ تأسيسها حظيت بأهمية اقتصادية كبيرة، نظرا لموقعها المتميز كملتقى للقوافل التجارية التي تسير بين شمال الصحراء وجنوبها، واشتهرت بتجارة الملح والذهب، لها قيمتها التجارية كمحطة تجارية ربطت بين زنج الجنوب وتجار الشمال بأهم

¹ - حسن علي إبراهيم الشبخلي، تأثير الإسلام وثقافته في السودان الغربي منذ القرن الحادي عشر الميلادي حتى نهاية القرن السادس عشر، أطروحة دكتوراة، كلية الدراسات العليا والآداب قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة أم درمان الإسلامية، 2009/2008م، ص 29.

² - عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص 160-161.

³ - حسين بويدي، المرجع السابق، ص 6.

معدنين في المنطقة الذهب والملح، وازدادت ازدهارا وقيمة تجارية بعد أن دخلها الملك سني علي، حيث عمل على تطويرها ودعم الأمن بها بعد أن تزوج أم أميرها¹.

خضعت جني لمملكة مالي قبل سنة 725هـ/1325م حين كان مجرد مدينة تقع على أطراف المسالك التجارية الرئيسة، ثم بدأت تكسب أهميتها مع البروز التاريخي لتنبكت، ففي فترة ازدهار هذه الأخيرة صارت مدينة جني مكانا لالتقاء التجار لتبادل المنتجات بينهم، وحملت القوارب البضائع من تنبكت إليها، حيث كان تجار الجنوب يقصدونها ليأخذوا ما يحتاجون إليه من بضائع الشمال، فارتبطت جني وتنبكت معا وكان ازدهارها من ازدهار هذه الأخيرة، فأصبحت جني مركزا للالتقاء للقوافل الصحراوية في الداخل، ومركزا للمنتجات الصادرة من السودان الغربي².

وبذلك تعد جني المركز التجاري الثالث من حيث الأهمية التجارية بعد كل من تنبكت وغاو، كما تعتبر من بين أهم المحطات التجارية لقبائل صنهاجة باعتبارها واقعة على الحدود الشمالية لبلاد السودان. ومن بين العوامل التي جعلت منها مركزا تجاريا هاما في العصر الوسيط، وقوعها على الطريق الغربي الرابط بين سجلماسة وغانة، تعتبر مستودع لتبر السودان، وذلك لوجود مراكز لتحويل الذهب وتصفيته من الشوائب، ثم تدهورت مدينة جني منذ القرن 7هـ/13م لصالح مدينة "جني الجديدة" التي حلت محلها إلى أن هُجرت "جني جنو" تماما مع القرن 9هـ/15م ربما بسبب الفيضانات التي عرفتها³.

واستفادت جني من توسع التجارة النهرية على يد سوروكو منذ القرن 9هـ/15م، كما ساعدها تراجع دور ولايته لصالح تنبكت على جذب السلع المغربية ومبادلتها بالسلع السودانية عن طريق تجارة القوارب، وحرص سني علي على إخضاعها كان انطلاقا من موقعها، وفعاليتها

¹ - الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص 306-307.

² - حسين بويدي، المرجع السابق، ص 7.

³ - المرجع نفسه، ص 7.

في الحركة التجارية، فكتب عنها السعدي "جني مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة...وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغاز وأرباب الذهب كلا المعدنين المباركين ما كانت ملكها في الدنيا كلها فوجد الناس بركتها في التجارة إليها كثيرا وجمعوا فيها من الأموال ما لا يحصيه إلا الله سبحانه، تأتي الرفاق من جميع الآفاق إلى تنبكت شرقها وغربها يمينها وشمالها أسلموا عند تمام القرن السادس¹.

وبهذا تطورت واتسعت مدينة جني، فكثرت بها الأسواق العامرة كل أيام الأسبوع، وقصدتها قبائل الونغارة الذين يقصدونها بعبيدهم للقيام بالمبادلات التجارية، واعتبرها الأوربيون أبرز المدن السودانية وأكثر أهمية اقتصادية من تنبكت، فكانت بمثابة العاصمة الاقتصادية لحوض النيجر الأعلى، فأعدت بذلك رسم خريطة التبادل وطرق القوافل ومركز التسوق، وإعادة تشكيل المجتمع السوداني لقربها من مناطق الغابات².

تكدا:

تقع تكدا إلى الجنوب الغربي من مدينة تمبكت، بحوالي أربع مائة وخمسين كيلومترا، وقد زادت أهميتها بعد اكتشاف النحاس بها، حيث تحولت قوافل التجارة إليها، بها مناجم غنية تنتج كميات كبيرة من النحاس والملح، فإن تكدا صارت سوقا تجاريا مهما، ووصل أهلها إلى درجة كبيرة من الثراء، بسبب الاشتغال بالتعدين، أو في الملح أو خدمت القوافل، وكان معدن النحاس ينتقل إلى المغرب ومصر عن طريق القوافل التجارية المترددة عليها³، ولا شغل لأهل تكدا غير التجارة يسافرون كل عام إلى مصر ويجلبون من كل ما بها من حسان الثياب سواها، ولأهلها رفاهية وسعة حال يتفاحرون بكثرة العبيد والخدم⁴.

¹ - السعدي، المصدر السابق، ص 12.

² - حسين بويدي، المرجع السابق، ص 9.

³ - الهادي مبروك الدالي، التاريخ السياسي، ص ص 310-311.

⁴ - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 275.

3- المراكز التجارية الصحراوية:

أودغشت:

تعتبر من أولى وأقدم المراكز التجارية الإسلامية التي ظهرت بالصحراء، وأهم مدينة في مجال صنهاجة الصحراء إلى غاية منتصف القرن 5هـ/11م، ساعدها موقعها الجغرافي في استقطاب التجار إليها، لأنها عبارة عن واحة تكثر فيها المياه والآبار¹، وتأسست كمركز تجاري حوالي القرن 1هـ/7م في المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، وهي الباب الجنوبي الذي تتفرع عنده قوافل السودان القادمة من كل ناحية نحو المنحنى العلوي لنهر النيجر الذي كان يعتبر الممر الرئيسي لبلاد السودان الغربي².

وحسب الناني ولد الحسين فإن مملكة أودغشت الصنهاجية نشأت بداية النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، وبسطت نفوذها على صحراء الملثمين، ودخلت في تنافس مع النظم السياسية المجاورة لها على فوائد المبادلات التجارية الصحراوية³. ولقد جاء وصفها لدى الرحالة والجغرافيين بقولهم: "مدينة لطيفة أشبه بلاد الله بمكة وبمدينة الجرزان في بلد الجوزجان من بلاد خرسان، لأنها بين جبلين بيت شعاب"⁴، كما تعد "مدينة عظيمة أهلة فيها أمم لا تحصى ولها بساتين كثيرة ونخل كثير، ويزرعون فيها القمح بالحرث بالفؤوس ويسقوا به بالدلاء، وكذلك يسقون بساتينهم وإنما يأكلون عندهم القمح الملوك وأهل اليسار منهم، وسائر أهلها يأكلون

¹ - حسين بويدي، المرجع السابق، ص 2.

² - اختلف المؤرخون والجغرافيون وعلماء الآثار حول تحديد موقعها حالياً، وتشير التنقيبات الأثرية أنها تقع في "تغداوست" حالياً، وتبعد أطلالها مسافة 34 كم إلى الشمال الشرقي من مدينة تامشكط بمنطقة الحوض في موريتانيا الحالية بالقرب من بئر النوداش. ينظر: المرجع نفسه، ص 2.

³ - الناني ولد الحسين، المرجع السابق، ص 187.

⁴ - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 91.

الذرة، وهم أرباب نعم جزيلة وأموال جلييلة ولهم أسواق حافلة عامرة الظهر كله، وتجارهم إنما هي بالتبر وليس عندهم فضة"¹.

ونظرا لموقعها الجغرافي الممتاز بين جبال أفله وكتلة أركيز الصخرية من أجل الدفاع عنها، جعل منها منطقة ساحلية قادرة على توفير مراغ جديدة ودائمة، وتوفير نقاط مياه لسنوات من الجفاف، الأمر جعل منها محطة تجارية هامة تستريح فيها القوافل، مما ساهم في نشر الأفكار والثقافات التي يحملها التجار، ونظرا لموقعها الاستراتيجي المهم ودورها الكبير في المبادلات التجارية العابرة للصحراء حدث تنافس شديد حولها، وصل في بعض الأحيان إلى نشوب صراع عسكري حولها، فقد رغبت القبائل المنتمية إلى مجموعة زناتة في الشمال ومملكة غانة في الجنوب في السيطرة عليها، واشتد الصراع حولها خلال القرن 4هـ/10م الأمر الذي أدى إلى سقوطها في يد مملكة غانة في تاريخ غير واضح نهاية القرن حدده دولافوس (Delafosse) سنة 380هـ/990م².

وودت بأسواقها جميع أنواع التجارة والسلع المختلفة كالحبوب والفاكهة التي ترد إليها من بلاد المغرب، وبها صناعات معدنية بلغت درجة كبيرة من الرقي والإتقان، وكانت تتاجر في الأقمشة الحريرية الموشاة التي يدفع ثمنها تبرا، لذا أصبحت ملتقى أغلب القوافل التي تنطلق من سجلماسة أو نول لمطة أو درعة عبر تامدلت، كما أنها كانت ارتبطت بمملحة أوليل ومديني غانة ويرسني بواسطة طريق كان يتجه من الغرب إلى الشرق، وهذا الطريق يربطها بشبكات الطرق المنطلقة من أوليل إلى نول لمطة وممالك حوض السنغال، كما ارتبطت أيضا بمختلف المدن السودانية الواقعة إلى الجنوب منها خاصة تلك الواقعة في حوض نهر السنغال³.

¹ - مجهول، المصدر السابق، ص 215.

² - حسين بويدي، المرجع السابق، ص 2.

³ - عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص ص 157-158.

ومن السلع التي اشتهرت أودغشت بمبادلتها مع المغرب "وتجلب إليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام على بعده، وسعر القمح عندهم في أكثر الأوقات القنطار بستة مثاقيل وكذلك الثمر والزبيب، وسكانها أهل إفريقية وبرقجانة ونفوسة ولواته وزناته ونفزاوة، هؤلاء أكثرهم وبهذا نبذ من سائر الأمصار، وبها سودانيات طباحات محصنات تباع الواحدة بمائة وأكثر، تحسن عمل الأطعمة الطيبة من الجوزنيقات والقطائف وأصناف الحلوات وغير ذلك، ويتجهز إلى أودغشت بالنحاس المصنوع بثياب مصبغة بالحمرة والزرقة، ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم، والذهب الإبريز الخالص خيوطا مفتولة، وذهب أودغشت أجود ذهب الأرض وأصحه"¹.

فأصبحت مدينة أودغشت ملتقى لأغلب القوافل التي تنطلق من سجلماسة أو نول لمطة أو درعة عبر تامدلت، كما أنها كانت ارتبطت بمملحة أوليل ومديني غانة ويريبي بواسطة طريق كان يتجه من الغرب إلى الشرق، وهذا الطريق يربطها بشبكات الطرق المنطلقة من أوليل إلى نول لمطة وممالك حوض السنغال، كما ارتبطت أيضا بمختلف المدن السودانية الواقعة إلى الجنوب منها خاصة تلك الواقعة في حوض نهر السنغال. وتراجع دور أودغشت بعد أن استرجعها المرابطون منتصف القرن 5هـ/11م الذي يعتبر نهاية مرحلة الدور الريادي لها، كمحطة للتبادل التجاري بين ضفتي الصحراء، خاصة بعد المعاملة القاسية التي تعرض لها سكانها على يد جيش عبد الله بن ياسين، دفعت بالكثير منهم إلى الفرار منها، كما تراجع دورها في تجارة الملح (ملاحة أوليل)، خاصة بعد بداية الإنتاج الوفير لملاحة تغازة بمجال مسوفة، مما صرف التجار عن طريق أودغشت إلى طريق وادي درعة- بلاد السودان عبر المفازة الكبرى².

¹ - البكري، المصدر السابق، ص ص 344-355.

² - حسين بويدي، المرجع السابق، ص 3.

توات:

تقع في الجنوب الغربي من صحراء المغرب الأوسط، وتوات عبارة عن إقليم واسع في صحراء الجزائر الغربية، يمتد من شمال قرارة إلى بلاد تدكلت، وينقسم إلى ثلاث مناطق: الأولى تيجورارين في الشمال حيث قصور أقروت وتساييت وتيميمون، والثانية توات الوسطى حيث قصور بودة وتيمي وتمنطيط، أما الثالثة فهي تيدكلت ومن قصورها أولف وأقبلي وتيط¹.

وكانت توات من المراكز التجارية المهمة التي ساهمت بشكل كبير في تنشيط التجارة العابرة للصحراء، نظرا لموقعها الاستراتيجي كواحة في وسط الصحراء، مما جعل منها نقطة اتصال بين شمال الصحراء وجنوبها وخاصة بلاد السودان الغربي، واعتبرت من بين المحطات الهامة في الطريق الرابط ببلاد السودان الغربي، حيث كانت تنزود القوافل فيها بالماء والغذاء وكانت تعرض بها سلع القوافل، وقد اكتسبت أهمية اقتصادية لاحتلالها لهذا الموقع حيث نشطت بها العديد من الأسواق، وظهرت العديد من الحوانيت لمختلف الحرف وهذا ما جعلها تعج بمختلف الجاليات².

وكان اليهود المحرك الأساسي لتجارة توات، فتواجد الجالية اليهودية الغنية وكبيرة العدد لها، في الوقت نفسه، در عليها أموالا وفيرة في تجارتها مع السودان الغربي، باعتبارها مركزا تجاريا تعبره قوافل الرابطة بين شمال إفريقيا، وبين السودان الغربي، وقد مارس اليهود إلى جانب التجارة، صياغة الحلبي وسك النقود ولعبوا أدوارا مهمة كوسطاء في التجارة، إذ كانوا على اتصال بكبار أرباب التجارة، وأرباب السفن والشركات الأوروبية، التي كانت تتعامل مع المغرب

¹ - حسين بويدي، المرجع السابق، ص 5.

² - هوارى رضوان، التحولات الاقتصادية والاجتماعية في السودان الغربي من القرن 7هـ/13م إلى القرن 10هـ/16م، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2020/2019م، ص 199.

آنذاك، وخاصة بناء ملتهم المقيمين بأوروبا، وبهذا أصبحت توات ملتقى طرق مهما لعدد كبير من القوافل التجارية القادمة من الشمال الإفريقي والمنطقة نحو السودان الغربي¹. وارتبط ازدهار قصور توات وفعالية مساهمتها في التواصل الاقتصادي بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي ازدهار مسالك المحور الأوسط خاصة في القرن 8هـ/14م، فقد استفاد قصر تمنطيط تفضيل التجار للمسالك العابرة عليه بسبب اضطراب الأوضاع الأمنية في المسالك الأخرى، كانتشار ظاهرة قطع الأعراب للطرق²، واستمرت فاعلية توات في تنشيطها للتواصل الاقتصادي عبر الصحراء حسب ما ذكره الحسن الوزان خلال القرن العاشر الهجري من أن "سكان قصر تيجورارين أغنياء"³.

¹ - الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص 301.

² - حسين بويدي، محاضرة الحواضر الصحراوية الفاعلة في العلاقات، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، 2021/2020، منصة التعليم عن بعد، ص 2. الرابط
جامعة قسنطينة، الموقع الإلكتروني:

<https://elearning.univ-constantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727>

³ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 163.

ثالثاً: المبادلات التجارية بين الدولتين

1- الصادرات:

الملح الحجري:

شكل الملح العنصر الأساسي بالنسبة للتجارة العابرة للصحراء، إذ احتل مكانة خاصة ضمن المواد الإفريقية، وحظي بإقبال كبير سواء شمال أو جنوب الصحراء، لكن بصورة أكثر في الجنوب الصحراوي، حيث شكل الملح المادة الأساسية التي يطلبها سكان السودان والمنطقة الغابوية لندرته وأهميته ولأنه سلعة صحراوية لا توجد بالأراضي المغربية ولا ببلاد السودان¹. وتشكل الملح الصخري على شكل طبقات ملحية متفاوتة من حيث السمك تفصل بينها طبقات طينية، وعادة ما يتشكل هذا الملح في الأحواض والسبخ، استخرجه سكان الصحراء وسوقوه إلى بلاد السودان منذ عهد سحيقة².

وكانت الصحراء المصدر الطبيعي للملح الصخري، ومن أشهر المناطق التي أسهمت في إنتاجه وتزويد السدان الغربي به هي مناجم تغازة³ الواقعة إلى الجنوب من مدينة سجلماسة⁴ على بعد عشرين يوماً، فقد كان له مكانة خاصة في المبادلات التجارية⁵، وظلت تغازة المصدر الرئيسي للملح في السودان حتى القرن السادس عشر الميلادي، ويقول البكري: "ومن غرائب تلك الصحراء معدن الملح على يومين من المجابة الكبرى وبينه وبين سجلماسة عشرين يوماً، تحفر عنه الأرض كما تحفر سائر المعادن والجواهر ويوجد تحت قامتين أو دونهما من وجه

¹ - الحسين عماري، المغرب والتجارة العابرة للصحراء من القرن 15 إلى القرن 18م، مطبعة وورك بيرو، مراكش، ط3، 2019م، ص 165.

² - الناني ولد الحسين، المرجع السابق، ص 426.

³ - ملاحه تغازة: مكان مأهول فيه عدد من مناجم الملح التي تشبه مقالع الرخام يستخرج الملح من حفر تحيط بها أكواخ عديدة يسكنها المستخدمون لاستخراج هذا الملح. ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 108.

⁴ - سجلماسة: مدينة تقع جنوب المغرب الأقصى بنيت سنة 140هـ/759م من قبل اليسع، وهي منطقة عبور ومركز تجاري هام. ينظر: اليعقوبي، البلدان، المكتبة المرتضية ومطبعها الحيدرية، التحف، ط3، 1957م، ص 56.

⁵ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 225.

الأرض، ويقطع كما تقطع الحجارة، ويسمى هذا المعدن تانتال، وعليه حصن مبني بحجارة الملح وكذلك بيوته ومشافه وغرفه كل ذلك ملح، ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماسة وغانة وسائر السودان والعمل فيه متصل والتجار إليه مسايرون وله غلة عظيمة¹.

وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة، يقطعونه قطعاً ويتبايعون به²، وكانت جزيرة أوليل على المحيط الأطلسي المصدر المهم لتزويد السودان الغربي بالملح، وبسبب وقوعها في آخر غرب السودان، فقد كان من الصعوبات بما كان وصول ملحها إلى أطراف السودان النائية جنوباً وشرقاً، لعدم توفر المواصلات التي تسير ذلك، وكان التكرار يتاجرون في ملح أوليل على السنغال³.

كما أنه كان أول سلعة اتجر بها مع السودان الغربي، حيث يصل للمنطقة على هيئة ألواح مستطيلة وزن ما بين 25 إلى 30 كيلوجراماً، ثم يوزع في أنحاءها، وبسبب ندرته وصعوبة توصيله ارتفعت قيمته التبادلية مع الذهب، وحرص التجار على جلب أكبر قدر منه للحصول على المزيد من الذهب⁴. وكان تجميد الملح في الصيف في بعض البحيرات الصغيرة والغدران بلاد البربر مكوناً طبقة بيضاء مستقيمة كما يشاهد ذلك مثلاً في ضواحي فاس⁵، وعانت بلاد السودان من نقص كبير في مادة الملح، حتى أن بعض الأساطير السودانية تؤكد على أن السكان كانوا يبيعون أبناءهم بقطعة ملح لا تساوي حجم أقدامهم⁶.

¹ - البكري، المصدر السابق، ص 171.

² - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 239.

³ - عمرو منصور، المرجع السابق، ص 62.

⁴ - الهادي مبروك الدالي، التاريخ السياسي، ص 320.

⁵ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 280.

⁶ - حسن حافظي علاوي، المرجع السابق، ص 385.

النحاس:

كان النحاس المصنع يمثل سلعة ذات أهمية كبيرة ضمن صادرات بلاد المغرب إلى السودان الغربي، فقد حرص تجار المغرب على نقله إلى أسواق مدينة أودغست ومدينة جاو، وكذلك إلى المناطق الداخلية من السودان الغربي، حيث تم مبادلتها مع سلع أخرى مثل الذهب¹.

ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه في الأرض، ويأتون إلى البلد، فيسكبونه في دورهم. ويفعل ذلك عبيدهم وخدمهم. فإذا سبكوه نحاساً أحمر، صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف، وبعضها رفاق، وبعضها غلاظ، فتباع الغلاظ منها بأربعمئة قضيب بمثقال ذهب، وتباع الرقاب بحساب ستمائة وسبعمئة بمثقال. وهي صرفهم، يشترون برقاقها اللحم والحطب، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح، ويحملون النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار، وإلى زغاي، وإلى بلاد برنو، وهي على مسيرة أربعين يوماً من تكدا².

المنسوجات الصوفية:

كانت المنتجات الصوفية المتنوعة من بين السلع التي حملها التجار المغاربة والمصريين فيشير الإدريسي إلى أن الأكسية الصوفية كانت من السلع التي حملها التجار المغاربة للمبادلة بالذهب، وعرفت سجلماسة بجودة صوفها، والذي يعمل منها ثياب يبلغ الثوب منها أزيد من خمسة وثلاثين مثقالاً، بفضل مهارة السجلماسيات في صناعة غزل الصوف كما كانت المنسوجات الصوفية والكتانية من أهم المنتجات المصدرة من تاهرت لمبادلتها بذهب السودان، حيث اشتهرت المدينة بإنتاجهم لتوفر خامات الصوف والكتان من المراعي والمزارع³.

¹ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 232.

² - ابن بطوطة، المصدر السابق، ج 1، ص 711.

³ - عمرو منصور، المرجع السابق، ص ص 75-76.

لقد عرفت الأصواف التي كانت تنتجها قطعان القبائل المرينية بوجودها في أوروبا واشتهرت باسم Merinos وذلك من القرن السابع هجري الثالث عشر ميلادي¹، كان معظم لباس أهالي السودان الغربي من المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية التي كان يأتي بها تجار المغرب الأقصى إلى منطقة التكرور عبر آغمات، وكان القميص السوسي الأخضر اللون يأتي به تجار المغرب من بلاد سوسي ولا يلبسه إلا الملوك نظرا لأنه غالي الثمن¹.

المنسوجات القطنية:

من السلع التي صارت لها قوة النقد، المنتوجات القطنية، ويطلق عليها أهل تكرور الشكيات، وكانت تدخل في معاملات عديدة في السودان، وهناك نسيج آخر يتعامل به، في بلاد كانم، يطلق عليه اسم دندي ينسج محليا، طول كل ثوب عشرة أذرع، يشترون منه ربع ذراع، لأن قيمته كانت جد غالية².

وكانت مصانع تنبكت وجني تنسج القطن والصوف، ولكن الأنواع الجيدة كانت تستورد من المغرب، أو من دول أوروبا عن طريق المغرب، وقد رأينا إقبال ذوي اليسار في تنبكت على اقتناء الثياب المحملية (الملف)، وكان بشوات تنبكت يهدون الصنف من المنسوجات إلى القضاة والفقهاء وولاية المدن، وكان الملف يستورد من إنجلترا وبعض دول أوروبا الأخرى عن طريق المغرب³.

الخيول:

كانت الخيول الأصيلة من بين السلع المهمة التي نقلها التجار المغاربة إلى السودان الغربي، وجنوا منها أرباح وفيرة، لأنه كان يعاب على الأحصنة الموجودة بالمنطقة أنها قصيرة وصغيرة، واستخدمها التجار في أصفارهم واضطر الحكام لاستيراد الخيل من الشمال الإفريقي،

¹ - حسن حافظي علاوي، المرجع السابق، ص 390.

² - الهادي مبروك الدالي، التاريخ السياسي، ص 333.

³ - محمد الغربي، المرجع السابق، ص 447.

وخاصة من المغرب الأقصى فالخيول التي يجلبها التجار لا تباع إلى بعد عرضها على الحكام وشراء احتياجاتهم منها، فارتفعت أسعار الخيول نتيجة لإقبال الحكام في السودان الغربي عليها³، حيث قال الوزان: "لا يولد في هذه البلاد من الخيل غير بعض البراذين الصغيرة التي يستعملها التجار في أسفارهم، وأرباب الحاشية في تجوالهم في المدينة، أما الجياد فتأتي من بلاد البربر تصل مع القافلة ثم تعرض بعد عشرة أيام أو اثني عشر يوما على الملك ليأخذ منها العدد الذي يريده ويدفع فيه ثمنا مناسباً"¹.

ويرجع السبب في ارتفاع أثمان الخيل إلى أن التجار الوافدين على السودان الغربي كانوا يدخلون ومعهم أعداد قليلة من هذه الخيول، لأن أغلبها كان ينفق في الطريق، نظرا لبعدها المسافة وعدم قدرتها على تحمل العطش والحر الشديد فيهلك العديد منها قبل وصوله بلاد السودان، ولكي يعوض التجار أثمان الخيول المالكة، فإنهم كانوا يبيعون القليل منها الذي يصل إلى السودان بأسعار مرتفعة لتعويض خسارتهم وما فقد منها².

الكتب:

جلبها التجار من المغرب ولكن لم تلبث حرفة الوراقة إن ازدهرت في تنبكت وجني، فأصبحت الكتب تستنسخ ويعاد بيعها في مناطق السودان المختلفة وفي المغرب نفسه³، اهتم حكام بلاد السودان باقتناء الكتب والمخطوطات على حد سواء، بالإضافة إلى الورق والأقلام، حيث كانت من أهم السلع التي تم استيرادها، نظرا لقيمتها الثقافية والعلمية، وتم استيرادها من المغرب الأقصى ومصر، وكانت أثمانها باهضة تزيد عن أثمان الحلي و المجوهرات⁴.

³ - عمرو منصور، المرجع السابق، ص 79.

¹ - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص ص 166-167.

² - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 236.

³ - محمد الغربي، المرجع السابق، ص 450.

⁴ - محمد عطلي، "الدور الحضاري للطرق التجارية بين الشمال الإفريقي والسودان الغربي"، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، عدد 6، الجزائر، 2017، ص 256.

الحلي والمجوهرات:

من المصنوعات الدقيقة التي دأب تجار السودان على حملها إلى بلادهم، وقد برع صناع مهرة في مدينة الحمديّة (تارودانت) التي أراد أحمد المنصور من تأسيسها أن تكون بابا للتجار بين المغرب والسودان، واشتهرت في صنع الحلي من الذهب والفضة والنحاس، وكانت قطع الحلي تلك تطعم بالزجاج الملون والعتيق، وضمن أصناف تلك الصناعة القلائد والخواتم والخلخال والتهاليل والأساور والسيح، وكانت أثمان تلك البضاعة باهظة الثمن¹.

2- الواردات:

الذهب:

يعد معدن الذهب من أهم المعادن التي حظيت بالعناية الفائقة، من قبل حكام السودان الغربي، وفي مقدمتهم السلطان أسكي الحاج محمد الكبير سلطان سنغاي نظرا لأنه يمثل العمود الفقري لاقتصاد السودان الغربي²، تعد ونگارة هي بلاد التبر المشهورة بالطيب³، وتعد بلاد السودان الغربي من أهم المناطق التي تشتهر بوجود مناجم الذهب، وكذلك تجارته خلال العصور الوسطى، فكانت تجارته من أهم صنوف التجارة التي كانت تتم بين كل من التجار في بلاد السودان الغربي من جهة وبلاد المغرب الأقصى وشمال إفريقيا من جهة أخرى⁴، يقول القلقشندي عنه "نبات الذهب بهذه البلاد يبدأ في شهر (أغست) حيث السلطان الشمس قاهر، وذلك عند أخذ النيل في الارتقاء والزيادة، فإذا انحط النيل تتبع حيث ركب عليه في الأرض فيوجد منه ما هو نبات يشبه النجيل وليس به، ومنه ما يوجد كالحصى⁵.

¹ - محمد الغربي، المرجع السابق، ص 447.

² - الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص 281.

³ - الإدريسي، المصدر السابق، ص 27.

⁴ - إسماعيل حامد إسماعيل علي، تاريخ ممالك أفريقيا جنوب الصحراء في العصر الوسيط، دار المصورات، الخرطوم،

ط1، 2021م، ص 66

⁵ - القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 290.

وهناك نوع من التبر يجمع بعد سقوط الأمطار، وهو ذهب جزيرة ونقارة التي تغمرها المياه في وقت الفيضان، وعند انحدار الماء يأتي المواطنون للبحث عن الذهب، الذي يكون قد انجرف مع انحدار المياه على التلال التي مر بها، ثم يتسرب على أرض الجزيرة¹، كانت هناك أربع مناطق تنتج الذهب بكميات وفيرة خلال مدة طويلة، وهذه المناطق هي مناجم بامبوك (Bambouk) التي تقع بين أعالي نهر السنغال العليا ونهر فاليم (Falémé)، ومناجم منطقة بيوري (Bure) التي تقع عند ملتقى النيجر الأعلى مع رافده تنكيسو (Tinkisso)، ومناجم منطقة لوبي (Lobi) في أعالي نهر الفوتا (فوتا جالون)، ومناجم منطقة أشانتي (Ashanti) في القسم الخلفي من ساحل الذهب².

ومن المرجح أن تصدير الذهب في صورة تبر كان الشائع لوجود أدلة عديدة على ذلك، فقد أورد البكري أن ملك غانة كان يترك لأهل بلاده التبر الدقيق، ويستصفي لنفسه القطع الكبرى، وكان الذهب المستخرج من مملكة الغرويين يبدل بصورته كتبر بالملح، ويؤكد الإدريسي تصدير الذهب في صورة تبر عند حديثه عن مستخرجيه في جزيرة الونقارة الذين عقب استخراجهم له يبيعون أكثره مباشرة لأهل ورجلان وأهل المغرب الأقصى³.

زادت صادرات الذهب خلال القرن الحادي عشر، في أعقاب استخدام العملة الذهبية على نطاق العالم الإسلامي، كما طرأت عليها زيادة أخرى بعد عام 1252م عندما أخذ الذهب يحل محل الفضة بوصفه العملة الرئيسية في أوروبا، وبين القرنين الحادي عشر والسابع عشر كانت إفريقيا الغربية هي المورد الرئيسي للذهب إلى الاقتصاد الدولي⁴، ففي بلاد تنبكتو

¹ - الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص 320.

² - بوفيل، المرجع السابق، ص 211.

³ - عمرو منصور، المرجع السابق، ص 56.

⁴ - أ.ج. هوبكنز، التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية، ترجمة أحمد فؤاد بليغ، المجلس الأعلى للثقافة، 1998م، ص

تستعمل قطع الذهب الخالص بدلا من العملة المسكوكة¹، ويقول البكري عن الذهب: "وذهب أودغست أجود من ذهب أهل الأرض وأصحه"².

كما أن ذهب أودغست كان يحول لخيوط مفتولة، وعثر على أسلاك مصنعة من الذهب كانت مسحوبة على حجارة وكان يصنع أيضا على شكل سبائك وأنصاف سبائك فقد عثر على ست عشرة سبيكة منهم اثنتان واحدة وزنها 134 جراما وطولها 25.2 سم، والأخرى وزنها 138 جراما وطولها 28.8 سم، وقوالب صنع هذه السبائك، وكذلك أسطوانة من الذهب وزنها 1.75 جراما يحتمل أن تكون كفة ميزان لوزن الذهب³.

الرقيق:

وفيما يتعلق بتجارة الرقيق من الهام أن نلاحظ قبل كل شيء أن الكائنات البشرية كان يتم تصديرها من إفريقيا الغربية قبل وقت طويل من نشأة التجارة عبر الأطلس في أواخر القرن الخامس عشر⁴، يبدو أن تجارة العبيد ظلت على الحالة التي كانت عليها في عهد الأساكي فلم يقع توسع كبير في تصدير العبيد عن طريق النخاسة، وكان تجار العبيد كتجار الملح يجنون أرباحا طائلة من تلك التجارة بالنظر للفرق الكبير بين ثمن الشراء، وثن البيع، وقد أشرنا إلى ما أصاب النخاسة من كساد في عهد جؤذر لأن المالكين كانوا مجبرين على تقديم عبيدهم للعمل في بناء المنشآت العسكرية المغربية، وكان أغلب العبيد من بين أفراد قليلة الموسى الوثنية وكانوا يجمعون بعد الغارات ويبيعون بعد ذلك بواسطة الوسطاء السودانيين في الأسواق الإسلامية⁵.

فإن العبيد اللذين يخدمون في قصر الإمبراطور كانوا كثيرا ما يشغلون بعد عتقهم مناصب رفيعة في الدولة، وكان للملك عدد كبير من العبيد بعضهم من الصقالية اللذين

¹ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 167.

² - البكري، المصدر السابق، ص 159.

³ - عمرو منصور، المرجع السابق، ص: 58.

⁴ - هوبكنز، المرجع السابق، ص 16.

⁵ - محمد الغربي، المرجع السابق، ص 451.

اشتراهم منسى موسى أثناء مروره بالقاهرة لأداء فريضة الحج¹، أما عن أسواق الرقيق في السودان الغربي، فنظرا لحاجة أهل السودان للملح المغربي وأهميته الكبيرة بالنسبة للسكان، فكان العبد يباع أحيانا بقطعة من الملح لا تتجاوز حجم قدمه، غير أن المألوف أن ثمن العبد أو الأمة هو حمل جمل من الملح².

ريش النعام:

شهدت هذه التجارة رواجاً كبيراً في الأسواق المغربية، فقد كان ريش النعام من السلع المهمة التي كانت تجلب من مملكة مالي الإسلامية، حيث كان يستخدم في حشو الأرائك والوسائد، كما كان الأغنياء يستخدمونه كمراوح للتهوية وأيضاً في صناعة الزينة، ومن ثم اهتم التجار المغاربة بنقل كميات كبيرة منه عن طريق التجار السودانيين أو الوسطاء والوكلاء الذين كانوا يقومون بجمع وإعداد ما يستطيعون الحصول عليه، ثم يأتون به إلى الأسواق فيبادلونه بتلك البضائع التي حملتها القوافل الآتية من المغرب الأقصى، وكان يبيض النعام من الصادرات السودانية التي يقبل عليها تجار المغرب، إذ كان يستخدم في الزينة وكانت أثمانه مرتفعة³.

العاج:

كان العاج من السلع التي استحوذت على اهتمام التجار لذا فهو يعتبر من السلع التي كانت لها أهميتها في صادرات السودان الغربي إلى الشمال، وقد ازداد حجم هذه السلعة مع التوسع في تجارة الذهب واشتهر العاج الأفريقي ووصل إلى مناطق كثيرة من الشرق بفضل التجار المسلمين، كان العاج سلعة رائجة قد نجد مؤشراً أيضاً إلى غلاء ثمنها، إذ يبدو أن

¹ - إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 308.

² - أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدياء شنقيط، لشركة الدولية للطباعة، مصر، 2003، ص ص 463-464

³ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 255.

فحش الأسعار كان من بين الأسباب التي جعلت البعض ينظر إلى المتاجرة في العاج نظرة الشك¹.

لقد تطرقنا في هذا المبحث إلى أهم النقاط التي تبين مدى تأثير بلاد المغرب الأقصى على بلاد السودان الغربي من الناحية الاقتصادية، حيث ظهر هذا التأثير جليا في التجارة والتي لعبت دورا هاما في ربط الاتصالات بين الدولة المرينية ومملكة مالي الإسلامية، هذا ما جعلنا نشير إلى الذهب والملح الذي كانا من أهم السلع التي يتم تبادلها بين الطرفين، بالإضافة إلى سلع أخرى ولتسهيل عملية المبادلة استوجب ظهور العديد من المراكز التجارية والطرق التي كانت تنتقل عبرها القوافل.

¹ - سعود بن حمد الختلان، "دور التجار المسلمين في رواج التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي فيما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين 11/9م"، المجلد 5، العدد 1، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الإنسانية، 1992م، ص 55.

الفصل الثاني

المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

المبحث الأول: المظاهر الاجتماعية

أولاً: المظاهر الاجتماعية بالدولة المرينية

ثانياً: المظاهر الاجتماعية بمملكة مالي

ثالثاً: التأثيرات المرينية على الحياة الاجتماعية بمملكة مالي

المبحث الثاني: الصلات الثقافية المرينية المالية

أولاً: دور المغاربة في نشر الثقافة الإسلامية بمملكة مالي

ثانياً: الوضع الثقافي والعلمي في الدولة المرينية

ثالثاً: الوضع الثقافي والعلمي في مملكة مالي

رابعاً: التأثيرات الثقافية المرينية على المجتمع المالي

المبحث الأول: المظاهر الاجتماعية

أسهمت الدولة المرينية بقدر كبير في تطوير المجتمع السوداني، فقد كانت الحياة الاجتماعية في مالي انعكاسا للحياة الاجتماعية في الدولة المرينية، وفي ظل العلاقات الودية بين البلدين تسربت العديد من العادات والتقاليد الإسلامية لمالي، مع احتفاظ المجتمع المالي ببعض عاداتهم وتقاليدهم الوثنية.

أولاً: المظاهر الاجتماعية في الدولة المرينية:

1- المأكل والمشرب:

تنوعت الأكلات في بلاد المغرب الأقصى خاصة في العهد المريني، فقد كانوا يغرسون أشجار الزيتون وكانوا يستخرجون زيتها للطعام، أما الشعير والقمح فهو وفير عندهم فقد صنعوا الكسكس¹ من القمح وجلبوا له مرقة الحليب والسمن أو مرقة اللحم مع بعض الباقوليات التي يزرعونها، وكان لهم الإبل والبقر والغنم والخيل فكانوا يشربون لبن البقر والغنم والإبل، كما كانوا يأكلون العصيدة وهي عبارة عن دقيق يوضع في الماء ويترك حتى ينضج، كما تنوعت عندهم الحلويات التي تقدم في الأعياد والمناسبات والتي تحلى بالسكر والتمر².

وذكر حسن الوزان أن أهل فاس كان من عاداتهم تناول اللحم مرتين في الأسبوع، لكن الأعيان يأكلونه مرتين في اليوم حسب شهيتهم، ووجبة خفيفة في الصباح مكونة من خبز وفاكهة وحساء سائل من دقيق القمح، وفي الشتاء يبدل الحساء برغيف من الحنطة محشو باللحم المملح ينضج معه ويتناولون في الظهر أكلا خفيفا كالحبز والسلطة والجبن أو الزيتون، وفي العشية يتناولون الخبز مع البطيخ أو العنب أو اللبن، أما علية القوم من الشيوخ والأعيان

¹ - الكسكس: يصنع من الدقيق المبلل فيحول إلى حبات مثل حبات الكزبرة توضع في قدر ذات ثقوب يسمى الكسكاس تسمح بطلوع البخار من قدر آخر ثم يخلط هذا الدقيق المتبخر بعد نذجه بالسمن ويسقى بالمرق. ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 253.

² - محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج 1، تاولت الثقافية، 2010، ص ص 49-50.

والتجار فإن مائدتهم أفضل من ذلك، وهم يأكلون على الأرض على موائد منخفضة بدون فوط ولا أغطية ولا يستعملون أي أدوات غير أيديهم، وإن أكلوا الكسكس تناوله جميع المدعوين في صحن واحد دون معالق¹.

وتختلف هذه الوجبات من منطقة إلى أخرى، فمثلا فاس ومكناسة كانت الوجبة الرئيسية عندهم الحوت، كما يوجد فيها التين والأعناب والفواكه، وأكثر شجرها الجوز، وفيها مياه عذبة، كما أنهم يتناولون لحوم الأغنام، ويستعملون بعض الأعشاب للعلاج، كما كان لديهم العسل وأشجار اللوز²، ووصف صاحب الاستبصار البلد "وفيها تكثر الخيرات من النخيل والزرع والفواكه كما أنها أخصب بلاد الدنيا وأن الواقع عندهم يكون في أخصب العيش"³

2- الملبس:

شهد المجتمع المغربي تنوعا واختلافا كبيرا في اللباس خاصة في الفترة المرينية، فقد كان للسلطان زي خاص به إذ يعمم بعمامة طويلة قليلة العرض من الكتان، وفوقها أحرامان يلفهما فوق أكتافه، وكان في يوم الجمع والأعياد يلبس الثوب الذي أهدي له من الكعبة المشرفة تبركا بها وقد اختلفت الملابس التي كانوا يرتدونها الناس باختلاف طبقاتهم في المجتمع ومراكزهم الاجتماعية، فالطبقة الوسطى مثلا كانت ترتدي ملابس مصنوعة من القماش المستورد، أما الطبقة الدنيا فيلبسون ثيابا مصنوعة من الصوف الخشن⁴، ومن عادات العلماء والأعيان المتقدمين في السن أن يلبسوا سترات عريضة الأكمام مثل ما يلبسه نبلاء البندقية من ذوي المناصب السامية⁵.

¹ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 253.

² - مجهول، المصدر السابق، ص ص 184-189.

³ - المصدر نفسه، ص 148.

⁴ - محمد علي دبو، المرجع السابق، ص ص 49-50.

⁵ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 252.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

وارتدى المغاربة القشائية وهي لباس من الصوف، كما لبسوا البرنس وهو كذلك من الصوف يلبس فوق الثوب، كما كانوا يتزينون به في محافلهم وأعيادهم كما لبسوا الحائك، ولبسوا السروال القصير والذي يصل أسفل الركبة، والطويل الذي يصل إلى الكعبين، ويلبسون على رؤوسهم القنور ويلبسون الجوارب وهي من الصوف كذلك¹. أما عن لباس نساءهم فقد كتب الحسن الوزان قائلاً: "ولباسهم جميل جدا إلا أنهم لا يرتدون في أيام الحر سوى قميص يزمونه بنطاق لا يخلوا من القبح ويلبسون في الشتاء ثياب عريضة الأكمام مخرطة من الأمام كثياب الرجال، وعندما يخرجون يلبسون سراويل طويلة تستر كل الساق، وخمار كعادة نساء الشام يغطي الرأس وسائر الجسم ويحجب الوجه كذلك بقطعة من القماش لا تظهر منها إلا عيونهن، ويضعن في آذانهم أقراط كبيرة من ذهب مرصع بحجارة كريمة بديعة وفي معاصمهن أساور من ذهب، وتتحلى نساء غير الأعيان بأساور من فضة ويضعن خلاخل مثلها على أرجلهن"².

واشتهر المغاربة بارتداء وصناعة الملابس والمنسوجات الصوفية والحريية، فقد استعملوا الصوف كأغطية، واشتهروا بالتطريز في الملابس، ولبس أغلب الناس كساء مطرز من الأرجوان وجلموس، وكان لباس الفقهاء عبارة عن كسوة تشمل برنوس، كما تميز أهل المغرب باستخدام اللون الأبيض والذي يعود استخدامه لأهل الأندلس.

¹ - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص ص 184-189.

² - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 252.

أما القضاة والكتاب فكانوا يتعممون بعمامة خضراء ولا يحملون سيفاً، أما المشايخ وقادة الجيش فيلبسون زياً متشابهاً وعمامة طويلة وكانوا يحملون سيفاً، أما أحذيتهم فمتنوعة الأشكال من بليغة ونعال كما كانوا يسترون وجوهه بلثام¹ حتى الكتف².

3- المسكن:

حرص المرينيون على تنشيط حركة البناء والتعمير في دولتهم، وقد شمل التعمير في المدن الجديدة مثل فاس الجديدة وبناء منشآت عامة مثل المساجد والمدارس المستشفيات، الفنادق والقناطير والمنشآت العسكرية³. أما بخصوص المساكن التي سكنها بنو مرين فنجد منهم من سكن القرى ومنهم من سكن الخيام، وكانوا يبنون حسب الطبيعة والمكان، ففي الأماكن كانت تكثر فيها الأمطار والثلوج كانوا يبنون بالحجارة ويسقفونها بالطين، أما أهل الجنوب فقد بنوا بالطوب وكانوا يسقفون بيوتهم بخشب الأشجار والنباتات ومنهم يتخذ من فروع الشجر، ومع لوقت صاروا يبنون الجدران العالية أما الرحل فكانت لهم خيام من الشعر والوبر⁴. وقد وصف صاحب الاستبصار العمارة المغربية، قائلاً: "أما بناءهم ففي أغلب الأحيان حصان وقصور منيعة، كما عرفت بالعمارة المتصلة"⁵، وهذا دليل على التطور المعماري الذي كان واصله له بلاد المغرب والدولة المرينية بوجه الخصوص.

¹ - اللثام: نوع من اللباس يستخدمه الرجال دون النساء، عبارة عن شال يشبه شال العمامة لكن أكبر منه، يلف حول الرأس والوجه تاركاً فتحتاً صغيرة محاذية للعين لا يرفعه الرجل ولا يحركه إلا عند تناول الطعام، وكان صنهاجة الجنوب يلبسونه، لذا غلب عليهم اسم الملتمين. ينظر: القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص 188. الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجماعات البدوية المنتقلة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1917، ص 18. محمد عوض، الشعوب والسلالات الإفريقية، الدار المصرية، ص 355.

² - نضال مؤيد أعرجي، الدولة المرينية على عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني (658-706هـ) (1286-1306م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الموصل، 2004م، ص 92.

³ - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 319.

⁴ - محمد علي الدبوز، المرجع السابق، ص ص 45-46.

⁵ - مجهول، المصدر السابق، ص ص 179-193.

ثانيا: المظاهر الاجتماعية بمملكة مالي

1- المأكّل والمشرب:

كان طعام مملكة مالي يختلف باختلاف البيئة والمواد الموجودة فيها، فقد اختلف طعام كل مدينة حسب طبيعتها، فمثلا كانت المواشي تكثر بمدينة تنبكت لذا اعتمد أهلها على اللحم والحليب في غذاءهم، واستخدموا السمن واللبن، أما مدينة جني فكثرت بها السمك وذلك لوقوعها على نهر النيجر فكان الوجبة الرئيسية هناك، أما المناطق الشمالية حيث البيئة الصحراوية فكان الطعام السائد هناك هو الألبان والذرى ولحوم الإبل¹.

كما يوجد في بلاد السودان الكثير من الخضروات على رأسها اللوبيا واللفت والثوم والبصل والباذنجان والملوخية، وعندهم شيء يشبه بالقلقاس إلى أنه ألد منه يزرع في الخلاء، فإن سرق منه السارق قطع رأسه الملك وعليه مكان ما قطع²، كما يتوفر عندهم البقر والعسل والسمن والأرز بأرخس الثمن³، وقد وصف الحسن الوزان المأكّل في مدينة كاغو فقال: "فهي مدينة متحضرة جدا بالنسبة لتنبكت الخبز واللحم فيها كثيران، لكن الخمر والفواكه منعدمان فيها، كما توجد فيها البطيخ والخيار والقرع بكميات ضخمة وأبار المياه العذبة"⁴.

ومن الخصائص البارزة للمطبخ الإفريقي وخاصة في الحواضر الإسلامية مثل غاو وتنبكت استعمال الزبدة والاستهلاك الواسع للسمك وأطباق الأرز، أما الطبقة المترفة فلا تأكل السمك بل لحوم الغنم والأبقار والجمل والدجاج، حيث أصبح الكسكس المغربي هو الأكلة المفضلة على موائدهم.

¹ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 277-280.

² - القلقشندي، المصدر السابق، ص 289.

³ - القزويني، آثار العباد وأخبار البلاد، دار صادر، بيروت، ص: 26.

⁴ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 169.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

وبهذا فقد انقسم الطعام في مملكة مالي إلى قسمين: أولاً طعام الملوك وهو كسكس وفتات لحم غنم سواء مطبوخاً أو مشوياً أو ملفوفاً، ثانياً طعام العامة وهو الأرز والعسل ولبن المواشي والإبل، ولحم الغزلان والطيور¹.

أما الخبز فلم يكن يتواجد إلا في بيوت الملوك المثقفين ثقافة إسلامية وآخذين بأخلاق البيض²، ويبدو أن ابن بطوطة لم يعجبه الأكل في مملكة مالي، عند وصفه لضيافته في دار القاضي بأنها تافهة وقد قال: "لقد جاءك قماش السلطان وهذبتة فقممت وظننت أنها خلع وأموال وهي ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقري وقرعة فيها اللبن الرايب وعندما رأتها ضحكت وطلت تعجبي من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشيء الحقير"، فقد رأى أن طعام نائبي السلطان يجب أن يكون أفضل من ذلك وقد عبر عنه بقوله: "فلا خير يرجى منهم"³، عند استخدام الملح في الطعام فقد كان غالي الثمن ونادر ومعدوم لديهم، وكانوا لا يضعونه على موائدهم ولكن عندما يأكلون الخبز كانوا يمسكون بقطعة من الملح بأيديهم ويلعقونه⁴.

وكان سكان المدن يتناولون ثلاث وجبات وهي وجبة الفطور تتضمن وجبة دسمة وهي الحساء واللحم المشوي أو المبخر وخبز طري وزبدة وعسل وفي الضحى يتناول أهل البلاد الشاي الأخضر المعطر بالنعناع، وقبل المغرب تصعد الأسر إلى سطح المنازل لتناول الشاي والحلوى، وقد يتناول طعام العشاء هناك ويكون مثل الغداء تقريبا ويقبلون أثناء طعامهم على شرب الماء ومشروبات مختلفة على رؤسها⁵، على رؤسها العسل واللبن وهم يشربونه عوض الماء لأنهم إن شربوا الماء الخالص أضرهم⁶، ومن أسلحته القوس والنشابات وعليها عمد ودبابيس،

¹ - الهادي مبروك الدالي، التاريخ الحضاري بإفريقيا ما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، منشورات البحوث والدراسات الإفريقية، الرباط، ط2، 2001، ص 28.

² - القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص 91.

³ - ابن بطوطة، المصدر السابق، ج 4، ص 255.

⁴ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 281.

⁵ - محمد الغربي، المرجع السابق، ص ص 612-613.

⁶ - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 271.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المربنية والسودان الغربي

وبعض الأسلحة الأخرى من شجر الأبنوس، ولهم فيها حكمة وصناعة متقنة أما قوسهم وسهامهم من القصب الشوكي¹.

2- الملبس:

لقد كانت عادات و تقاليد بلاد السودان تقتضي بأن العري عندهم أمر عادي فقد وصفهم القزويني في قوله وذلك في ذكر مدينة تكورور "وأهلها عراة رجالهم ونسائهم، إلا أشرف المسلمين فإنهم يلبسون حوالي 20 ذراعا، ونسائهم يسترون قبولهن بخرزات العقيق ينظمنهن في الخيوط ويعلقنهن وهي من العظام وذلك من شدة الحر².

أما التجار يلبسون أكسية وعلى رؤوسهم الكرازين³، حيث قال أبي الحسن وغالب لباسهم الجلود، ومن احتشم كان جلده مدبوغا، والخير عندهم لا يوجد إلا عن طرفة من الملوك المتخلقين بأخلاق البيض⁴، ويتراوح العري بين العري الكامل والعري الذي تستر فيه العورة ويكشف عداها، فقد كان ينظر لمن يغطي عورته بشيء من الاحتقار، وفي بعض القبائل يقضي العرف بأن تغطي النساء المتزوجات عورتهم أما الصغار من الجنسين والنساء الغير متزوجات فإنهن يخرجن عراة بالكامل⁵.

وأما عامة الناس فكان لابسهم من الجلود يسترون بها عوراتهم فقط، فكانوا يلبسون جلود الأنعام في الشتاء، أما في الصيف فيمشون حفاة عراة، وأحيانا يحمون باطن أرجلهم بالنعال المصنوع من جلد الحمل، ولم يختلف الزي عن ما هو موجود منذ عهد مملكة غانة،

¹ - الإدريسي، المصدر السابق، ص ص 20-21.

² - القزويني، المصدر السابق، ص ص 24-26.

³ - القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 286.

⁴ - أبو الحسن بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ترجمة إسماعيل العربي، المكتبة التجارية، بيروت، ط1، 1970م، ص 91.

⁵ - حسن إبراهيم الشخلي، تأثير الإسلام وثقافته في السودان الغربي من القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن السادس عشر، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم درمان، كلية الدراسات العليا قسم تاريخ وحضارته الإسلامية، 2009م، ص ص 168-169.

فالموروث الاجتماعي من الصعب أن يتغير في فترة قصيرة، وفي عهد مملكة غانة كان يلبس أزرار حرير أو وبر، وفي وسطها السروال والنعل من الشرك، أما عن السلطان فيلبس طرطورا من ذهب ويعمم عليه قطنية وملابسه مخيطة لا يجرؤ أحد من الرعية على لبسها إلا ولي العهد¹، كما اهتم سكان بلاد السودان بالزينة على رأسهم سكان مالي فقد استعمل الرجال الخواتم وعلقوا السلاسل والتمائم على أعناقهم وتقلدوا الأسلحة والخناجر وتطيبوا بالعطر².

3- المسكن:

أما في ما يخص المسكن فقد كان في بدايته من أغصان الأشجار وجلود الحيوانات مثل الإبل، واعتنى أهل سكان السودان بتجميل بيوتهم وتزيينها بالنقوش وتأثيرها بالأقمشة المستوردة من بلاد المغرب، كما زينت الجدران ببعض التحف كأنياب الفيلة وبيض النعام وريشه، وعند مدخل الباب كان توضع حدوة حصان، أو يرسم كف رجل أو يوضع خيطان من القطران لأجل العين³.

كما ذكر القزويني في كتابه آثار العباد وأخبار البلاد أن أهل بلاد السودان اتخذوا بيوتهم على أشجار عظيمة من الأرض، فلم يترك شيء من الأثاث والطعام على وجه الأرض إلا وقد أفسدته الأرض، فجميع قماشهم وطعامهم في البيوت التي اتخذوها على أعالي الأشجار وذلك من لشدة الحر⁴، كما كانت معظم بناياتهم بالباستا، وهو البناء بالطين قدر ذراع ثم تترك حتى تجف ثم يبنى عليه وسقفها بالخشب و القصب وأرضها تراب مرمل⁵.

¹ - الهادي مبروك الدالي، التاريخ الحضاري، ص 34.

² - محمد الغربي، المرجع السابق، ص 612.

³ - الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص 27

⁴ - القزويني، المصدر السابق، ص 24.

⁵ - القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 283

4- بعض العادات المستهجنة لدى المجتمع السوداني:

بعد دخول الإسلام لبلاد السودان الغربي أخلط السودانيون بين الإسلام و المعتقدات الوثنية وعلى رأسها السحر و عالم الأرواح، بالإضافة لظاهرة العري والتي كانت أمرا عاديا قبل الإسلام وقد ارتبطت هذه العادة بالذهنية السودانية، فقد تعاملوا مع جسد المرأة كمعطى اجتماعي عادي ولم يحاول أن توضع له حرمة أو قداسة¹، وهو الأمر الذي مقتته ابن بطوطة وذكره باشمئزاز عندما رأى الخدم يخرجن عاريات وليس عليهن غطاء ولا لبس، كما أن النساء كن يحضرن مجلس السلطان عاريات².

أ- حرية العلاقة بين الجنسين:

أو ما أسماه البعض بالإباحية فقد ذكر العمري أن منسا موسى على الرغم من تدينه ومحافظة على الصلاة إلا أنه لم يلزم نفسه حدود الشرع في الزواج، وكان يعتقد أن منصبه كملك يتيح له اتخاذ ما يشاء من الأزواج³.

ب- الاختلاط بين الجنسين:

ومن العادات السيئة كذلك لا توجد حرمة بحيث لا يوضع حاجب بين الذكور والإناث بل يختلط الجنسين ويكون هذا الاختلاط من مرحلة الطفولة حتى نهاية العمر⁴.

ج- التواضع والتذلل للملك:

ذكر ابن بطوطة أن معظم الناس تواضعوا لملكهم، وأشدهم تذلا له، يخلفون باسمه إن دعي بأحدهم عند الجلوس نزع ثيابه ولبس ثياب حلقة ونزع عمامته ودخل رافعا ثيابه وسرواله إلى ساقيه وتقد بأذلة ومسكن وضرب الأرض بمرفقه ضربا و وقف راکعا يسمع كلامه⁵.

¹ - أحمد الشكري، المرجع السابق، ص ص 232-233

² - ابن بطوطة، المصدر السابق، ج1، ص 691.

³ - أحمد الشكري، المرجع السابق، ص 233.

⁴ - حسن إبراهيم الشخيلي، المرجع السابق، ص 186.

⁵ - ابن بطوطة، المصدر السابق، ج4، ص 264.

د- عدم دفن الموتى:

ومن عادتهم أن لا يدفن عندهم ميت إلا إذا كان ذا قدر وحشمة وكل من كان سوى هؤلاء ممن لا قدر له، من فقراء وغرباء يرمى في قلات مثل ما يرمى المتان¹.

ه- أكل لحوم البشر:

ذكر هذه العادة الشنيعة والقيحة ابن بطوطة حينما زار مملكة مالي، فكتب بأن قوما منهم يأكلون لحم البشر ولا يأكلون لحم البشر البيض، اعتقادا منهم أنها مضرّة بالصحة، ومن مواصفاتهم أنهم يضعون أقرط كبار في آذانهم، وقد قالوا بأن أطيب ما في اللحوم الآدميات الكف والثدي².

و- عادة أكل الجيف:

ذكرها أيضا الرحالة ابن بطوطة عند رحيله من قرية في الخليج مات له جملة الذي يركبه، وقد أخبره الرعاة بذلك، ولما ذهب لرأيت جملة وجد أن السودانيين قد أكلوه، وهي من عاداتهم أكل الجيف³.

¹ - صلاح الدين المنجد، المرجع السابق، ص 55.

² - ابن بطوطة، المصدر السابق، ج4، ص 268.

³ - المصدر نفسه، ص 269.

ثالثاً: التأثير المريني على الحياة الاجتماعية بمملكة مالي

لقد شجعت وحدة الدين بين ساكني الشمال الإفريقي والسودان الغربي على تعميق العلاقات بين الطرفين، ولم يقتصر الأمر على تبادل السلع والبضائع فقط وإنما انتقل لتبادل الأفكار وتغيير بعض من السلوكيات الغير اللائقة في المجتمع السوداني مثل: المشي عراة أو أكل لحم البشر¹.

1- التأثيرات المرينية على الأسرة السودانية:

كان لانتشار الإسلام في إمبراطورية مالي، وقيام علاقات ودية مع بلاد المغرب الأقصى، له الأثر في الانفتاح الحضاري بين الشعبية وتبادل الخبرات والمعارف بينهما²، وقد كان الأثر البالغ على المجتمع السوداني خاصة على الأسرة ومنظومة الزواج وبعض العادات والتقاليد السودانية.

أ- الأسرة:

بالنسبة للأسرة السودانية كانت من الأسر المتوسعة، أي أنها تتشكل من الأب والأم والجد والأبناء والأحفاد، إضافة للأصهار الموثوق بهم، وهذه الخلفية العرفية ذات البعد الاقتصادي، استمرت بعد أسلمت المنطقة³، وكانت الأسر السودانية التقليدية قائمة على النظام الأموسي، إذ يعتبر الأبناء أعضاء في جماعة الأم، لذا يكون للخال في هذه المجتمعات الأموسية من الحقوق والواجبات والالتزامات ما يفوق حقوق الأب وواجباته اتجاه أبناءه، ومثال ذلك ما ذكره البكري حول مسألة توريث الملك الغاني الوثني ابن أخته الحكم بدلا من أولاده⁴.

¹ - زليخة بن رمضان، المرجع السابق، ص 45. الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص ص 544 - 545.

² - فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 326 - 327.

³ - هواري رضوان، المرجع السابق، ص ص 227 - 231.

⁴ - بويدي حسين، المرجع السابق، ص 4.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

وعلل البكري ذلك بأن الملك لا يشك في أنه ابن أخته، في حين يشك في ابنه. وكان النظام الأموسي وتأثيراته على المجتمع السوداني واضحة وجلية، فقد كان انتقال السلطة كما ذكر أعلاه من الحاكم إلى ابن بنت أو ابن الأخت، كما أشار إليه البكري وابن خلدون، وكان هذا معروفا لدى قبائل المالنكي والؤلوف¹ والسيرير²، وبعض سكان الغابات الاستوائية. وتحول المجتمع السوداني عن هذا النظام إلى النظام الأبوي كان تدريجيا، خاصة مع تشكل مؤسسة القضاء، التي كان لها دور كبير في القضاء على هذه العادات والسلوكيات المحرمة، حتى حضور الجاليات المغاربية بالسودان الغربي ساهم في الحد من هذه الظواهر والممارسات المنافية للشرع.

¹ - قبائل الؤلوف (*Ouolofs , Yollofs, Ghiolofs, Wolofs*): عرفوا في الكتابات الأوربية باسم الؤلوف، سكنوا المناطق الشاسعة الممتدة إلى الجنوب بين نهرى غامبيا والسنغال، ولكنهم أجبروا على الخروج منها بعد غارات قبائل الطراز المغربية، وتركوا في ست تشكيلات الدولية: أوالوا، باوول، كايور، سنيه، سالوم. والؤلوف يرأسها رئيس منتخب، ورؤساءها ارتبطوا بالولاء للرئيس الأعلى للؤلوف، وانقسموا إلى أربع طبقات رئيسية: أرستقراطية الأحرار وأرباب العمل والحرف اليدوية والمغنون ثم العبيد الذين كان لهم حق تملك العقارات. وكانت معظم قبائل وشعوب السينيغامبا ماعدا الماندينجو والبولولا تخضع لحد ما لنفوذ الؤلوف، وهم من أهم العناصر السكانية لبلاد السودان الغربي، يمثلون ثالث تجمع من حيث العدد والأهمية، يتميزون بسواد بشرتهم وطول قاماتهم وصلابة أجسامهم. ينظر: الفيتوري، المرجع السابق، ص 33.

² - قبائل سّرر (*Sérère*): يقال لهم أيضا "السيرير" وتعني تسميتهم باللغة الفولان "المتفرقين"، نزلوا على طول ضفتي نهرى السنغال وغامبيا إلى جنوب الرأس الأخضر بجوار قبائل التكرور، واستوطنوا المنطقة التي شيدت عليها دآكار الحالية والمناطق المجاورة لها بالإضافة إلى أعالي نهر غامبيا، وهم جيران الؤلوف من جهة الجنوب، ارتبطوا بهم ارتباطا وثيقا، واختلطوا مع الماندينجو، وكانت لغة الؤلوف هي اللغة الرسمية لدويلات السيرير، كما أنهم يتحدثون لهجة سان سان (*Sin Sin*). أما عن أصلهم اختلفت الروايات في أمره، ذكر عالم الآثار الفرنسي دولافوس أنهم قدموا من فوتا السنغالية إثر ضغط القبائل البربرية فاتجهوا لبلاد الؤلوف ومنها إلى جنوب السين (*Sine*)، أما الدكتور فارنو (*Verneau*)، فيرى بأنهم من السنغال حيث احتلوا مناطق شاسعة منها ولكنهم خضعوا لسيطرة الؤلوف، فاتجهوا نحو السين وغامبيا وكونوا غالبية سكان بيال (*Bael*)، وبعدها تصاهروا مع ساليم الغرب (*Salaem*) وساليم الأدي مع القرن 7هـ/13م، ونتيجة لتوسعات قبائل الماندينجو ببلاد السيرير اتجه هؤلاء نحو بلاد الجلف وكايور (*Cayour*) خوفا من انتشار الإسلام بمنطقتهم وبقوا خاضعين لسيطرة الماندينغ، وانقسموا إلى فرعين: "نون" (*Nones*) و"سين" (*Sine*). ينظر: الثاني ولد الحسين، المرجع السابق، ص 408. الفيتوري، المرجع السابق، ص 322.

ب- الزواج:

أما بالنسبة لمنظومة الزواج قبل انتشار الإسلام كان الزواج محصورا داخل العشيرة بهدف المحافظة على وحدة العشيرة وتماسكها¹، ولم يعرف المجتمع السوداني قبل الإسلام العقد والصداق وتحديد عدد الزوجات، إذ كان الملك أو زعيم القبيلة أو العشيرة، يتزوج بأكثر من أربع نساء من مختلف القبائل، بهدف عقد التحالفات السياسية والاجتماعية، والإكثار من النسل، وتوفير اليد العاملة. ومن أنواع الزواج المعروفة الزواج عن طريق المبادلة (رأس برأس)، أي أن يعطي الرجل أخته أو ابنته لرجل آخر على أن يعطيه هذا الآخر أخته أو ابنته من أسرته أو من قبيلته، والرجال الكبار سنا هم من يتولى هذا الأمر، أما الشباب الصغير عندما لا يتمكن من الحصول على زوجة، عليه انتظار موت أحد الرجال كبير السن ليث زوجته أ زوجات، أو يجد له زوجة بين زعماء القبائل الأخرى، مقابل خدمات يقدمها لهم، كتوفير بضائع معينة، أو تقديم بناته المستقبلات كزوجات لهم².

ومع انتشار الإسلام بينهم ودور الفقهاء والدعاة والتأثير الثقافي للجاليات المغاربية، بدأت هذه الظاهرة في الزوال، وتبنى السودانيون مفاهيم الشريعة الإسلامي في بناء أسرهم، ولم يتم ذلك بشكل سريع بل أخذ وقتا، فكلما اقتربنا من الحواضر كان التأثير سريع والعكس صحيح، كما أن هذا لا يعني اندثار هذه الظاهرة نهائيا³، وأما بالنسبة للمصاهرة السياسية كانت معروفة في المجتمع السوداني من قبل، وكان الهدف منها هو المصالح السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية للقبيلتين أو العشيرتين، كما كانت هناك علاقات مصاهرة بين

¹ - نبيلة حسن، في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، د.س.ن، ص 240.

² - بويدي حسين، المرجع السابق، ص 5.

³ - نعيم قداح، المرجع السابق، ص ص 181-182.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

التجار المغاربة والحرفيين مع بنات مملكة مالي، كما أن أغنياء الجالية المغربية تقربوا من أغنياء الأسر السودانية والأسر الحاكمة عن طريق الزواج¹.

وبلغت قوة التأثير المريني على المجتمع المالي فقد ساد في المجتمع المالي الزواج على الطريقة الإسلامية فمن قبل كانوا يتزوجون دون أن يكون للمرأة صداق أو مهر، فهذه العادات اختفت وانحصرت في بعض القبائل فقط التي لم تتأثر بمبادئ الإسلام، وخلاصة القول يمكننا أن نستنتج أن العلاقات الاجتماعية بين الدولة المرينية ومملكة مالي الإسلامية أحدثت الكثير من التأثيرات على المجتمع المالي، حيث يمكننا القول أن العادات والتقاليد السائدة في بلاد المغرب والعصر المريني بالتحديد انتقلت برمتها إلى بلاد السودان، مع حفاظ هذا المجتمع على بعض العادات والتقاليد الموروثة من العهد الوثني للمملكة².

ج- المرأة:

كانت للمرأة مكانة كبيرة في المجتمع السوداني، باعتبارها حجر الأساس فيه، خاصة مع غياب الرجل المتكرر في ميادين الحرب أو لمزاولة الصيد، لذا كان لزاما على المرأة تسيير شؤون بيتها، وتربية أبنائها والخروج في أحيان كثيرة لقضاء حوائج أسرتها³، واختلقت مكانة وأهمية المرأة في المجتمع السوداني، باختلاف الوسط الاجتماعي والجغرافي ومدى الالتزام العقائدي، وتميزت النساء الحرائر بشكل عام في حرية تدبير شؤونهن الخاصة، وحتى التأثير في الحياة السياسية أحيانا، فقد كانت "قاسا" زوجة منسا سليمان شريكته في الملك على عادة السودان، ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر، لكونها بنت عمه مما أكسبها هذا الحق، فزوجته الثانية التي لم تكن من الأسرة الحاكمة، لم تحظ بهذه الامتيازات. كما نجد أم منسا موسى الثاني ملك مالي (775-789هـ/1374-1387م)، ساهمت في تنصيب زوجها "صندكي" الوزير ملكا خلفا

¹ - حليلة تركي وآخرون، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مملكة مالي الإسلامية، مذكرة ليسانس، قسم التاريخ، جامعة الوادي، 2012/2011، ص 49.

² - فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 333-338.

³ - عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص 126.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

لابنها المتوفي، وفي بعض الحالات حدث وأن تملك المرأة السودانية على بعض المناطق، وأدارتها، ودافعت عنها بجيش يتبع لها¹.

فأصبحت المرأة السودانية تعمل مع زوجها أو أخيها، وتساهم في تلبية حاجات بيتها وأسرتها لكن بطريقة مختلفة عما كانت عليه في الوثنية، فعملت في طهي الطعام وطحن الدقيق، وحياسة الملابس القطنية والصوفية، واستخراج المياه من الآبار².

واعتبرت المرأة عند قبائل فلان³ وتكرور⁴ سيدة البيت وصاحبة السلطة فيه، وأثناء غياب الزوج بحثا عن المرعى لقطيعه لمدة تتراوح ما بين ثمانية وتسعة أشهر، كانت الزوجة تتولى

¹ - حسين بويدي، المرجع السابق، ص 6.

² - البكري، المصدر السابق، ص 64.

³ - فلان (فلاني، فولاني، فلاتة، Peuls): من أهم القبائل الإفريقية من حيث التأثير والانتشار، أصبحوا خلال مراحل تاريخهم من أهم القوميات الكبرى في السودان الغربي والأوسط واختلف المؤرخون حول أصلهم، في بداية الأمر هاجروا إلى غرب السودان ثم إلى السودان الأوسط واحتلوا أقاليم السنغال الأوسط حيث أقاموا هناك دولة صغيرة لهم ومنها تسربوا نحو الشرق والجنوب، ثم أصبحوا تابعين لإمبراطورية غانة، وبعد استيلاء مالي على غانة أصبحوا جزءا من المملكة الجديدة، وبعد سقوط مالي خضعوا لإمبراطورية سنغاي وبعد سقوطها إثر الزحف المراكشي زادت مكانتهم لأن المراكشيين لم يوطدوا حكمهم هناك، فاندفعوا نحو الشرق وانتشروا كزراعة بين القرى الزراعية، وازدادوا قوة مع ق 16م بوجود إمارات الهاوسا التي استقروا بها، ثم تمكنوا من تأسيس إمبراطورية كبيرة اهتموا بالزراعة فعادت عليهم بفوائد اقتصادية كبيرة مكنتهم من التطور، ثم سلكوا طريق الجنوب في رحلاتهم ثم اتجهوا نحو الشرق انطلاقا من السنغال إلى غينيا في فوتا جالون ثم إلى مالي ثم فولتا العليا فالنيجر فنيجيريا أين أسسوا دولة سوكتو بزعمامة عثمان بن فودي الفلاني، واختلطوا مع قبيلة البوفر الموجودة بالمنطقة قبلهم، وتصاهروا فنتج عنصر بشري جديد يطلقون على أنفسهم اسم "فولي". ينظر: الفيتوري، المرجع السابق، ص 28.

⁴ - تكرور: أكثر شعوب المجموعة صلة بالصحراء وأقدمهم تأثرا بالإسلام، اعتنقوه على عهد الملك وارجاي بن رايس، وعرفوا بكرور جمعها "تكاره" أو "تكاره" ويطلق عليهم أيضا اسم "تكور" أو "تكرور" ومنه جاء اللفظ الفرنسي (Takrur, Toucouleurs)، سمو بذلك نسبة للبلاد التي سكنوها قديما والتي تقع شمال حوض السنغال الأسفل، وعادة عندما يذكر الكتاب الإنجليز والفرنسيين لفظ التكرور يقصدون به الشعب الذي يعيش على ضفاف هذا نهر فوتا سنغومايو، وهي المنطقة التي تعرف حاليا بالسنغال وموريتانيا، لكن المؤرخ إبراهيم جوب يرفض ذلك لأن كلمة تكرور هي اسم مدينة مملكتهم، سكنوا الجزء الأكبر من ضفاف النهر من بندو وبلاد فوتا على جانبي نهر السنغال وإن كان أكثرها على الجانب الأيسر من النهر أين توجد أقاليم: دمار، تورو، لاو، بوسيه، جنار. وأصبحت كلمة تكرور مرادفة لهم لكلمة سوداني وقد تبعهم في هذا المؤرخون السودانيون الذين كتبوا بالعربية، والواقع أن تكرور تدل على ما يعرف حاليا بالسنغال=

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

مهمة الإشراف على جميع المهام، كما كانت فاعلة في التجارة المحلية، ومساهمة في الأنشطة الحرفية والزراعية والرعية.

د- الطفل:

عرف المجتمع السوداني ظاهرة "وأد المواليد الجدد"، بسبب بعض المعتقدات الأرواحية، التي تربط بينه وبين حدوث بعض الكوارث والمصائب للأسرة أو القبيلة، أو لأنه ولد مشوها أو معاقا، أو ولد لامرأة لا تحل الأعراف المحلية الزواج بها، أو ولد قبل فطام أخيه، ومع انتشار الإسلام أكثر بين السودانيين قلت هذه الظاهرة الوحشية تدريجيا، والسنغاي¹ رغم إسلامهم كانوا إلى غاية القرن 8هـ/14م إذا ولد لهم مولود ليلا طرحوه في تراب بيت مظلم، ثم اختفت

=وموريتانيا. وتوزعوا أيضا في منطقة سيغو وبلاد نهر النيجر الأعلى، واستقبلت مواطن نفوذهم شعب الفلان بعد هجرته إليها فأخذوا عنهم اللغة رغم أنه احتفظ بنمط حياته المتميز عن بقية الشعوب السودانية بمن فيها تكرور، وتصاهر تكرور مع ولوف وفولاني حال قبائل سوننكي وتحذوا لهجات متعددة. ينظر: حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 373. الفيتوري، المرجع السابق، ص 34-35.

¹ - سنغاي (Songhay): يقال لهم أيضا سنغهاي وصنغاي، استوطنوا حدود الغابات الاستوائية في سنوات الميلاد، ثم انتقلوا إلى الشمال مع منطقة النيجر الأوسط وفي القرن 2هـ/7م كانت مساكنها تمتد حول ضفتي النيجر بحوالي 150 كم وشغلوا الأقاليم الواقعة جنوب مدينة تمبكت الممتدة على ضفتي نهر النيجر إلى الشمال من داهومي عند مدينة داندي إلى جنوب فولتا العليا (بوركينا فاسو) وشمال نيجيريا. ومن أهم عشائريهم عشيرة ألدو الذين امتنهنوا الصيد النهري صيد الأسماك وزراعة الدخان، عشيرتي كوروميا وكولومانص مارسا النشاط الزراعي، وعشيرة السوركو والكو مارسوا الصيد البري. واختلطت بتلك العشائر مجموعات من المهاجرين الماندينجو القادمين من الغرب فضلا عن مجموعات صنهاجية هاجرت من صحراء الملثمين خلال القرن 1هـ/7م، وتجاوزت منعطف نهر النيجر جنوبا لتدخل ضمن تلك العشائر وتشكل معا شعب السنغاي. ومن جهة أخرى يذكر البعض بأنها هاجرت مع قبائل البربر التي اعتادت الانتقال جنوبا بحثا عن الرزق وهي من قبائل لمطة التي استطاعت أن تستقر حول النيجر في القرن 2هـ/8م، وبسطت نفوذها على أهالي تلك المناطق، وهناك أقوال تذهب إلى القول بأن شعب سنغاي جاؤوا أصلا من مصر وسكنوا مدينة أغاديس أولا حيث وصلتهم هجرات جديدة من صعيد مصر، ومع هذه الهجرات تحركوا نحو حوض نهر النيجر الأوسط حيث استقروا هناك وبسطوا نفوذهم. أما اليوم فإن قبائل السنغاي تتوزع بين جمهوريتي مالي والنيجر في المناطق المحيطة بمدينة جاو، وتوجد منهم أقليات في مدينة أغاديس، تمبكت، جني، وشمال البنين (داهومي سابقا). ينظر: إسماعيل العربي، حاضر الدول الإسلامية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 242. زبادة عبد القادر، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في أفريقيا الغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص 20. الناني ولد الحسين، المرجع السابق، ص ص 407-408.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المربنية والسودان الغربي

هذه الأعراف، وأصبح السودانيون يحتفون بالمولود الجديد، ويقيمون له العقيقة، ويباركون لوالديه مولده بالهدايا والمال، لكن لا تزال عادة الوأد مستمرة بين بعض القبائل الإفريقية البدائية، كقبيلتي هامر وبانا في وادي أومو بإثيوبيا¹.

وبفعل تأثير الحضارة الإسلامية وفعالية الجاليات المغاربية، تغيرت وضعية الأطفال، فأصبحت العائلات النافذة تكلف العبيد المقربين بتربية الأطفال والعناية بهم، كما أن بعض الأسر السودانية أدخلوا أبنائهم الكتاتيب لتعلم وحفظ القرآن، وذلك للمكانة التي احتلها طلبة العلوم الشرعية بالبلاد، إذ وجد بمملكة صنغاي ما بين 150 إلى 180 كتابا، يضم الواحد منهم 230 صبيا، وعائلات الفقهاء هي التي كانت أكثر حرصا على التنشئة العلمية لأبنائهم، كعائلات أندغ محمد وآل آقيت والحاج.

أما بالنسبة للقبيلة فقد تم القضاء على العصبية القبلية، فخرجت القبيلة من وضعها الضيق إلى الانفتاح على باقي القبائل بعد ازدهار التجارة، حيث ساد روح التعاون والتكافل بين أفراد السودان²، فقد اختفت أقبح العادات مثل أكل لحم البشر، وتقديم القرابين البشرية ووأد الأطفال، كما قلت ظاهرة العري، كما كان الناس لا يغتسلون فأصبحوا بعد الإسلام يتأنقون في ملابس من أجل الصلاة وشرعوا يغتسلون يوميا³.

وبخصوص تجهيز الموتى والجنائز فقد تحلى أهل السودان عن العادات الوثنية القديمة حيث أصبحت ذات طابع إسلامي، بداية من التغليف والتكفين بالقماش، والذي لا يميز بين فقير وغني، ولم يكن يدفن الميت في يومه من أجل حضور ملوك المناطق المجاورة، وكانت تصاحب الجنائز بالقرآن وقصائد مدح الرسول صلى عليه وسلم⁴.

¹ - حسين بويدي، المرجع السابق، ص 6.

² - هواري رضوان، المرجع السابق، ص ص 227 - 231.

³ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 335.

⁴ - هواري رضوان، المرجع السابق، ص 231.

كما وصف ابن بطوطة حالة الأمن والاستقرار والعدالة السائدة في تلك المملكة المسلمة، وكيف كان الأهالي يعيشون في أمان تام دون الخوف على ممتلكاتهم، كما أكد على مدى حرص العائلات على إقامة الصلاة والنظافة حيث، قال: "فمن عاداتهم الحسنة قلة الظلم وشموخ الأمن في البلاد وعدم تعرضهم لمال من مات من البيض، وإن كان يوم جمعة ترى الازدحام أما المسجد ولكل منهم علامة بسجادته، أما لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لأحدهم إلا ثوبا واحدا غسله ونظفه وشهد به يوم الجمعة كما اعتنوا بحفظ القرآن وقد جعلوا لأولادهم قيودا فلا تفك عنه حتى يتم حفظه"¹.

2- تأثير المطبخ المريني على الطبخ السوداني:

لقد أحدثت بلاد المغرب أثرا كبيرا في المطبخ المالي فيما يخص الأطباق وأوقات الوجبات، فالمجتمع المالي كان فيه خليطا من الأكلات والتي أهلكت المجتمع في بعض الفترات، وهو الأمر الذي ذكره حسن الزناتي حين قال: "وقد نتج عنده بعض الأمراض بسبب الأغذية التي كانوا يستهلكونها" فقد أخلطوا بين مكونات لا تتناسب مع بعضها البعض مثل: السمك والحليب والزبدة واللحم والتي كانوا ينظرون إليها على أنها غذاء كامل².

كما أخذ المجتمع المالي بعض الأكلات المغربية مثل الأرز وطعام الكسكس والذرة والعصيدة³، وقد الكسكس المصنوع من القمح أو الشعير الأكلة المفضلة على موائد بلاد السودان، كما خص الطبقة الرفيعة من أهل البلاد وهم الملوك فقد كان يقدم لهم مع فتات لحم الغنم مطبوخا أو مشويا أو ملفوفا⁴.

كما أدخل المغاربة تقليدا فيما يخص وجبات الطعام اليومية، والتي تتمثل في تناول الفطور والغداء والعشاء، أما العشاء فقد كان عندهم شبه معدوما وكان يقتصر على الشاي الأخضر

¹ - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 264.

² - هواري رضوان، المرجع السابق، ص 232.

³ - الهادي مبروك الدالي، التاريخ الحضاري، المرجع السابق، ص 28.

⁴ - المرجع نفسه، ص 28.

المعطر بالنعناع¹، أما عن الأواني فقد كانت نفسها التي في بلاد المغرب، وقد اختلفت حسب الحالة الاجتماعية لأفراد المجتمع فأواني عامة الناس كانت مصنوعة من قشور القرع أما الملوك فكانت أوانيهم من ذهب².

3- التأثير المريني على الألبسة السودانية:

أما فيما يخص اللباس السوداني فقد كان عاريا وكاشفا لكل الجسم تقريبا مثل ما سلف الذكر ماعدا عورة الإنسان في بعض الحالات، لكن بمجرد دخول الإسلام واعتناقه من طرف السودانيين أخذت هذه الظاهرة تختفي تدريجيا خاصة في المراكز الحضارية، وهو يد على مدى تأثير الإسلام والفكر المريني على المجتمع السوداني، ومجاهدته على هذه العادات بهدف القضاء عليها لكن التعاليم الإسلامية لم تستطع محو هذه الظاهرة في فترة قصيرة³.

وقد بدى واضحا تأثير اللباس المغربي في مملكة مالي فقد لبس المالون جلباب ودراريع ولبس فرسانهم أساور ذهب فمن زادت فروسيته لبس أطواق ذهب وغن زادت لبس خلخال ذهب وكما زادت فروسية البطل ألبسه الملك سروالا متسعا⁴.

كما كان اللون الأسود والأزرق المفضلين في المجتمع السوداني منذ عهد المرابطين، ثم اتخذ كانكان موسى بعد عودته من الحج اللون الأخضر شعار دولته، لكن بقيت الألوان الداكنة كما كان اللون الأبيض مع العمامة الزرقاء اللباس التقليدي للعلماء والأئمة حتى اتسع استعماله وكذا كبار القادة والمواطنين يتخذونه في المناسبات الرسمية، كما كان لباس المدن شبيه بلباس واحات جنوب بلاد المغرب، وقد لبس التجار والعلماء الدراريع والسراويل أما في البرد فقد لبس البرنس الصوفي الخشن وكان البرنس السوداني يدعى باموس⁵.

¹ - محمد الغربي، المرجع السابق، ص 613.

² - هواري رضوان، المرجع السابق، ص 232.

³ - أحمد الشكري، المرجع السابق، ص ص 232 - 233.

⁴ - صلاح الدين المنجد، المرجع السابق، ص 53.

⁵ - محمد الغربي، المرجع السابق، ص 610.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

ولبس سكان مالي في الأعياد والمناسبات ثياب بيض حسان، أما السلطان فيضع على رأسه طيلسانا¹، وهم لا يلبسونه إلا في العيد ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء فإنهم يلبسونه في سائر الأيام، ويحملون علامات حمر من حرير²، كما أدخل المغاربة حرفة الحلاقة إلى بلاد السودان الغربي وكذلك الآلات كانت كلها عربية، كما حدث في المغرب حيث كان يخلق الشعر للعلاج من الأمراض أو للزينة³.

كما بدا واضحا التأثير المريني على ملابس مالي، فالأقمشة والأصباغ كانت من أهم السلع المغربية التي نالت رواجاً في أسواق السودان الغربي، كما كان أهل السودان يحرصون على شراء الملابس الملونة من الأحمر والأزرق والأصفر، خاصة تلك الثياب المصنوعة في مصر إلى جانب المنتوجات القطنية المصنوعة في المغرب الأقصى⁴، وقد قلد أهل مالي المغاربة في اتخاذ أواني البخور والمواقد وقوارير الزهور، أما النساء فكن يضعن الأصباغ على وجوههن، ولبس القلائد والأحجار الكريمة، والأساور والخلاخل والأقراط فكانت تتدلى من الشعر والأنف⁵.

وبالنسبة للاحتفالات بالأعياد الدينية فقد حظيت باهتمام الحكام والعلماء والعامّة على حد سواء، فكان الناس يخرجون لرؤية هلال رمضان، ويقرؤون القرآن في ليالي رمضان ويختمون في ليلة السابع والعشرين⁶، كما كان السودانيون يأتون إلى أبواب المساجد قبل غروب الشمس بجبات من التمر، وقطع من الخبز والحساء ليوزعوها على الفقراء، كما وزعوا الطبخ على القراء وصبيان الكتاتيب ليلة القدر فرحا بهم، كما فرحوا أيضاً بعيد الفطر⁷.

¹ - الطيلسان: عبارة عن قطعة من ثوب الحرير الأسود تحمله بعض الشخصيات المهمة على الأكتاف وهو شعار القضاة والفقهاء والأئمة. ينظر: ابن بطوطة، المصدر السابق، ج 4، ص 260.

² - المصدر نفسه، ص 260.

³ - محمد الغربي، المرجع السابق، ص 611.

⁴ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 287.

⁵ - محمد الغربي، المرجع السابق، ص 61.

⁶ - إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 308.

⁷ - محمود كعت، المصدر السابق، ص 180.

أما عيد الأضحى احتفلوا به أيضا في أجواء من الفرح والبهجة، وكانوا يضحون في الغالب بالإبل أو الجواميس أو البقر أو الأغنام أو الماعز كل حسب قدرته، ويقوم المداحون بإنشاد المدائح النبوية وإلقاء الشعر كما ذكره لنا ابن بطوطة "حضرت بمالي عيد الأضحى والفطر، فخرج الناس إلى المصلى وهو بمقربة من دار السلطان، وعليهم الثياب البيض الحسان، وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان، وكانوا يقومون بالتكبير والتهليل عند خروج السلطان، وكانت بين يدي السلطان العلامات الحمر من الحرير... ثم خرج إلى المصلى فقضيت الصلاة والخطبة"¹.

وبالنسبة للاحتفال بالمولد النبوي الشريف فكان من أحب المناسبات الدينية لقلوب السودانيين، ينتظرونه بفارغ الصبر هم وأبنائهم، فكان الناس في تنبكت يخرجون إلى الشوارع ليلة المولد النبوي، يضربون الطبول، ويمدحون الأشعار، ويزينون المساجد، ويلقي العلماء والفقهاء الخطب الدينية والمواعظ على الناس وطلبة العلم، فيذكرونهم بسيرة الرسول الكريم². كما احتفل السودانيون بختم القرآن من قبل الأطفال، وكانت الأسرة تقيم وليمة كبيرة لطفلها، تستدعي فيها الضيوف من الأهل والأقارب والجيران، ويلبسون طفلهم أحسن الثياب، ويحملونه على دابة ليطاف به الحي، كما احتفلوا بالسنة الهجرية وعاشوراء³.

4- التأثير المغربي على العمران السوداني:

يختلف العمران السوداني التقليدي عن العمران الذي نعرفه ببلاد الغرب الإسلامي، وهذا يرجع لخصوصية المنطقة وطابعها المناخي والجغرافي، فهم يستعملون الطين واللبن في عمارتهم، وهو الغالب عليها، حسب ما أورده التجار المسلمون أثناء رحلاتهم للمنطقة، فكانت الحيطان مبنية بالطين، ومغطاة بطبقة ممزوجة بالتبن، فكانوا يشكلون الطين على شكل

¹ - ابن بطوطة، المصدر السابق، ج 4، ص 244.

² - محمد الغربي، المرجع السابق، ص 261.

³ - المرجع نفسه، ص 261.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

أسطوانات، تجفف في الشمس، ثم تغمس مرة أخرى في الطين، لتلصق بعضها ببعض، وتكدس فوق بعضها البعض لبناء الجدران، وبعد الانتهاء من بناء الحيطان، تلتف الطبقة الأخيرة منها بتلطيف الطين، بمزجه بزيت الغرقي (شجرة الشيا)، وتسطح الحيطان. وبالنسبة للأسقف فهي على شكل قبة أو هرم، وتصنع عادة من الأخشاب والقصب، وقد تسببت كثرة الأخشاب في البناء في حرائق مهولة¹.

أما بالنسبة للمناطق القريبة من الأنهار كان السكان يبنون الجدران بأغصان الأشجار المتراصة، واستعملوا الطين بعد خلطه ببعض النباتات لشدها ببعضها البعض، ويعد هذا البناء النباتي بديلاً عن الأبنية الطولية، واعتبر الأثريون العمران الدائري بمثابة الشكل السوداني التقليدي، ودل تواجده في غاو مع العمارة المستطيلة على تزواج النمطين في المدينة الواحدة ما بين القرنين الخامس والثامن الهجريين، ورغم التحولات العميقة التي شهدتها المنطقة منذ قرون عديدة، استمرت الممارسات العمرانية المحلية قائمة، ولا تزال مستعملة لغاية اليوم².

ونتيجة التواصل بين المرينيين والسودانيين بفضل التجارة تأثر سكان مالي بالعمارة المغربية، خاصة في مدينة تنبكت التي أصبحت ذات طابع مغربي في العمران، حيث قال السعدي: "كانت عمارة تنبكت خراب ولم تأتيها العمارة إلا من المغرب الأقصى ففي أول الحال كانت مساكن الناس زرييات وبيوت الأخشاب، ثم تحولت الزرييات إلى الصناصل، ثم تحولوا عنها إلى بناء الحيطان وأسوار قصار بحيث الواقف في خارجها يرى ما بداخلها"³، وهذا ما يؤكد هيمنة الحضارة المغربية على مملكة مالي، فقد تحلت البنايات إلى حوائط صغيرة الارتفاع حيث كان سكان بلاد السودان ينظرون لما يشع في بلاد المغرب والبلاد العربية ويقلدونها⁴.

¹ - حسين بويدي، المرجع السابق، ص 5.

² - المرجع نفسه، ص 6.

³ - السعدي، المصدر السابق، ص 21.

⁴ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 287.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

كما كانت بيوت الملك والنبلاء والطبقة الرفيعة تبنى بالجبس والآجر ولا يسمح لغيرهم بالبناء به إلى ما أذن له الملك¹، كما برز الفن العربي في بناء المساجد لا سيما فيما يتعلق في بناء المؤذنة المدرجة والمحراب المثلث ومن بين هذه المساجد مسجد جيكري بييري (أي المسجد الكبير) والذي بناه المهندس الأندلسي جمادى الساحلي² مع عبد الله الكومي الغدامسي على الطراز المغربي الأندلسي، وبنيت على يمينه مقابر للسودانيين في عهد منسى موسى³.

وعند أداء منسى موسى لفريضة الحج سنة 724هـ/1324م التقى بالشاعر الأندلسي أبو إسحاق المعروف بطويجين، وأقنعه بأن يصطحبه معه إلى بلده، فرافقه وبقي بمملكة مالي عشرين سنة إلى أن توفي سنة 747هـ/1346م، وحين ذهب معه بنى له قبعة مربعة الشكل تعتبر من التحف النادرة في فن البناء، وكذلك شيد أبو إسحاق قصرا ومسجدا من الطوب الملون له مؤذنة وسقف من الأخشاب، وقد نال هذا الطراز المعماري الاستحسان من سكان مالي الأثرياء واستخدموه في بناءه⁴.

في حين يرى بعض الباحثين نتيجة الأبحاث الأثرية التي قاموا بها أن إبراهيم الساحلي لم يدخل نمطا عمرانيا جديدا إلى بلاد السودان الغربي، فهو غريب عن المنطقة، ولا يعرف تقنيات البناء بها، ودوره ينحصر في مساهمته في ضخامة المعالم الإسلامية كالمساجد، تماشيا مع رغبة منسى موسى في إبراز إسلامية دولته، فقد كشف التنقيب الأثري عن قدم استعمال الطين

¹ - القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 91.

² - جمادى الساحلي: هو المهندس إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأنصاري الساحلي المشهور بطويجين من غرناطة، كان أبيه أمير العطارين بغرناطة وقد كان مع شهادته من أهل العلم فيها كما عرف الساحلي أنه موفور المادة العلمية كثير الحلاوة أنيق الدباجة، فقد رحل من الأندلس إلى المشرق لأداء فريضة الحج ثم سار لبلاد السودان واستوطنها زمنا طويلا وتوفي بها. ينظر: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج2، ترجمة إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1988م، ص 194، ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، مج1، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجة، القاهرة، ط2، 1973م، ص 329. فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 287 - 295.

³ - المرجع نفسه، ص ص 287 - 295.

⁴ - عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص ص 277 - 278.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

المشوي (المحروق) في غاو ما بين القرنين الثاني والرابع الهجريين. والاختلاف الواضح بين الطراز المعماري السوداني والطراز المعماري المغربي على مستوى الأشكال والتصاميم يبين بأن الساحلي لم يكن وراء ذلك¹.

أما بالنسبة لمسجد مدينة جني فهو من عمل المهندس إدريس المراكشي ويعتبر مثلاً عظيماً على تمايز الفن العربي الإفريقي، وهو يعود إلى الهندسة المعمارية في المغرب والتي حملها مهندسون عرب وأفارقة على بلاد السودان، درسوا فن العمارة في فاس ومراكش، والذي تميز بالبساطة والسهولة، أما أن بيوت العامة كانت على شكل قباب طينية مخروطة الشكل، وكان الطابع العام أكواخ مشيدة تستند هذه القباب على أعمدة من الخشب وهو الأمر الذي أعطاه خشونة وتصدي للظواهر الطبيعية، وبعض هذه الأكواخ مزينة من الداخل والخارج ومتلاصقة تفصل بينها ممرات ضيقة وساحات صغيرة للاستراحة والرقص، وعلى مسافة صغيرة ساحة عامة واسعة للعبادة²، وبهذا انتقل المجتمع السوداني من البناء بأغصان الأشجار وجلود الحيوانات للبناء بالحجارة والطين، كما ظهرت الهندسة العربية الإسلامية في بناءهم فظهر نظام الأقواس والنقوش، والتأثر بالطراز المغربي³.

وفي المقابل تكيفت العمارة المغربية مع البيئة السودانية، فقد استخدم الطين في الربط بين الحجارة في الجدران واستخدم الطلاء الطيني لحماية الجدران وتماسكها أيضاً، واستعمل البلاط من قوالب من الطين المجفف لتبليط أرضيات الغرف أو أحجار مهذبة، أما المواد النباتية كالأخشاب مثلاً استخدمت في صناعة الأسقف، والأبواب في عمارة مدينة كومبي صالح. وأكدت صوفي برتييه (Sophie BERTHIER) عن وجود تأثير إيباضي في العمارة السكنية بكومبي صالح، نظراً للعلاقات الاقتصادية والتجارية بين الجماعات الإيباضية والحواضر

¹ - حسين بويدي، المرجع السابق، ص 7.

² - نعيم قدام، المرجع السابق، ص ص 165 - 166.

³ - الهادي مبروك الدالي، التاريخ الحضاري، ص 26.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

الصحراوية والسودانية. وفي مدينة تكدة خلال القرن 8هـ/14م كانت المنازل مبنية بالحجارة الحمراء، ويبدو بأن هذه التقنية عمت المناطق الشمالية ذات الطابع الصحراوي والمدن القريبة منها خاصة، عكس المناطق الداخلية ببلاد السودان أين تطغى تقنية البناء الطوبي الأسطواني والطيني¹.

¹ - حسين بويدي، المرجع السابق، ص 7.

المبحث الثاني: الصلات الثقافية المرينية المالية

إن العلاقات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي هي حصيلة عهود من الزمن، منذ بداية الفتوحات الإسلامية وصولاً إلى الدولة المرابطية والموحدية، فهي ليست وليدة للدولة المرينية فقط، لكن المرحلة التي وصلت إليها السودان الغربي من ثقافة وإسلام في الفترة المرينية، وبالتحديد مع مملكة مالي، فقد نتج عن هذه العلاقات ميلاد دولة إسلامية مبنية على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وقد حمل عناء هذه العلاقات التجار والفقهاء والعلماء والرحلات المغاربية لبلاد السودان الغربي، فقد عملوا على إرساء قواعد الدين الإسلامي في بلاد السودان الغربي، والعلاقات السياسية النشطة بين البلدين والتي قادها علماء في بعض الأحيان فأدت لإسلام المملكة الوثنية.

كما كان للمرابطين الدور الأول في إرساء قواعد الدين الإسلامي في بلاد السودان الغربي فقدم المرينيين بالدين الإسلامي لم يكن بتلك الغرابة والصعوبة في بلاد السودان¹، انتشار الإسلام في جنوب الصحراء عن طريق دعاة اختلفت أنشطتهم ومن بينهم التجار:

أولاً: دور المغاربة في نشر الثقافة الإسلامية بمملكة مالي

1- في المجال التجاري:

كان للتجار المغاربة (عرباً وبربراً) دور مهم في الربط ضفتي الصحراء وبلاد السودان الغربي خاصة في فترة ازدهار مملكة مالي الإسلامية، فقد دخل الإسلام إلى غانا عن طريق التجار ونفس الشيء تكرر مع مملكة مالي، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فتعاملهم بحن الخلق وصدق المظهر بالإضافة لقيامهم بالصلوات، هذه الأمور لفتت انتباه الوثنيين، فلم يقتصر دورهم على التجارة فقط، بل قاموا بتعليمهم اللغة العربية كما بنوا المساجد والمدارس وعلموهم القرآن وأصول الفقه².

¹ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 339-341.

² - إبراهيم الشبخلي، المرجع السابق، ص ص 222-223.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المربنية والسودان الغربي

وقد ارتاد التجار العرب والمسلمين بلاد السودان للتجارة لكنهم عملوا على نشر الإسلام بحيث أخذت التجارة مكانة مرموقة في ظل الإسلام، فقد نشروا الإسلام بين قبائل الفولان والهاوسا¹ والمانديجو²، كما استقروا هناك وتصاهروا معهم حيث قال الحسن الوزان أن حاكم تمبكت زوج ابنته إلى تاجر من العرب³.

وبرز دور التجار المغاربة منذ عهد مملكة غانة، حيث قدموا إلى كومي وبنوا مدينة خاصة بهم على الطراز المغربي، كما بنوا المساجد وأنشئوا المدارس لتعليم القرآن واللغة العربية،

¹ - قبائل الهاوسا: ورد ذكرهم في بعض المراجع باسم "الحوصا"، وهم مجموعة من القبائل والجماعات المنتشرة في غرب أفريقيا، قبائل تعيش بشمال نيجيريا، سيطروا قديما على مساحات كبيرة تمتد من الصحراء الكبرى شمالا إلى خليج غينيا جنوبا، ومن تشاد وكامرون شرقا إلى أعالي فولتا غربا، ولكن يتركزون أساسا في نيجيريا وينتشرون في مقاطعات سوكتو، كانو، كاتسينا، زاريا وباوتشي وذلك بين الصحراء الكبرى شمالا وبرنو شرقا ومنحنى نهر النيجر غربا، والمناطق الساحلية لخليج غانا الكبير جنوبا، تفوقوا في الصناعة اليدوية خاصة الصناعات النسيجية، كما كان لهم نشاط تجاري مزدهر مع الشعوب الأخرى، وتمكن تجارهم بفضلهم من الوصول بتجارهم إلى غابة القسطنطينية والقاهرة. وخالط الهاوسا عناصر بربرية من الشمال وأخرى عربية من الشرق، وبفضل هذا التمازج والاتصال أصبحت لديهم لغتهم الخاصة التي استخدموها في التجارة والمعاملات الخارجية والعلاقات الدبلوماسية في غرب إفريقيا، وانتشرت على نطاق واسع في غرب القارة فهي لينقي فرنكا (Lingue franca) أي لغة المعاملات التجارية والمالية، وأصبحت اللغة الهوسوية اللغة الثالثة في إفريقيا بعد العربية والسواحلية. ودانت قبائل الهوسا بالوثنية قبل أن تتحول في القرن 7/13م إلى الإسلام الذي انتشر انتشارا واسعا، وترك أثارا بعيدة في حياة هذه القبائل الاجتماعية والدينية، وأخذت هذه الإمارات تعتنق الإسلام الذي انتشر بينها، كما أنها وقفت موقف الحذر من الاستعمار البريطاني ونفرت من الثقافة الغربية، ولم تجد المسيحية منفذا بينها بفضل قوة انتشار الإسلام بها. ينظر: نعيم قداح، المرجع السابق، ص: 19. الفيتوري، المرجع السابق، ص 26. زاهر رياض، الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا، مصر، مكتبة أنجلو، ط1، 1968م، ص 290.

² - قبائل الماندينجو/الماندينغ: عرفوا أيضا باسم الماندي، وهم عبارة عن مجموع من القبائل السودانية الإفريقية التي تجمعهم روابط لغوية وحضارية مشتركة، امتزجوا فيما بينهم خلال الألف سنة الأخيرة قبل الميلاد على أقل تقدير، وشكلوا غالبية سكان الأقاليم الواقعة بين الروافد العليا لثلاث أنهار رئيسة في الغرب وهي السنغال غامبيا وأعالي النيجر، أي أنهم انتشروا في جميع أقاليم السودان الغربي الواقعة في جنوب السنغال وأعالي النيجر أي من المحيط إلى قلب نيجيريا، ولم تتوافر عنهم معلومات ذات أهمية إلا مع القرن 6/12م. والماندينجو هم العناصر الأساسية لشعوب دويلات غرب السودان في غانا ومالي، ويعتبرون أنفسهم من أنشأوا مملكة مالي، وهذا عند اعتناق رؤسائهم للإسلام مع بداية القرن 7/13م. وتفرع الماندينجو إلى عدة قبائل من أهمها بامبارا (Bambara)، مالينكي (Malinké)، صوصو، غالونكي ديولا وغيرها. ينظر: نعيم قداح، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية، ص 18. الفيتوري، المرجع السابق، ص 24.

³ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص ص 32-37.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة الميرينية والسودان الغربي

حيث أصبحت اللغة العربية لغة الثقافة في البلاد، بالإضافة إلى كونها لغة التجار المستخدمة في المبادلات¹.

كما استند ذلك للعديد من العوامل أهمها سهولة الدين الإسلامي وسماحة مبادئه، وكذلك طبيعة الشعوب التي نشر فيها²، كما لفتت المنتوجات التي كانوا يصطحبونها التجار المغاربة إلى بلاد السودان الغربي شعوبها، وبهذا نجح العديد من التجار في الوصول إلى مراكز سامية في المملكة، وبفضلهم كان الطبقة الأرستقراطية أول من اعتنق الإسلام، أين أصبحوا دعاة وباشروا نشر الإسلام بأنفسهم³، حيث قال القلقشندي في هذا الصدد أول من أسلم من ملوك مالي هو برمندانة الذي حج بعد إسلامه، فاقتدى به من جاء من بعده من الملوك، بالإضافة إلى ماري جاطة (سوندياتا كايثا) الذي كان من أعظم ملوك مالي والذي حج هو، وساكورة حج أيضا، بالإضافة إلى رحلة حج منسا موسى والتي تعتبر من أشهر رحلات الحج في بلاد السودان الغربي⁴.

كما قام التجار باصطحاب الفقهاء والعلماء معهم نظرا لعدم استقرارهم فتولى هؤلاء تعليم الناس، وكان للأخلاق السامية التي تمتع بها التجار دور مهم في تحسين صورة الإسلام في غرب إفريقيا، كما اتصفوا بالكرف والسخاء، فتقرب منهم الفقراء، كما التزموا حدود المكاييل والمقاييس والموازن السليمة، ولم يشربوا الخمر ولم يأتوا منكرا، ومع امتلاكهم للأموال ساعدوا في بناء منازل جديدة، وهذا ما جذب السودانيين لهم⁵.

وهذا يدل على أن الإسلام بدأ في بلاد السودان الغربي مع الطبقة الرفيعة من الملوك ورجال الدولة، بينما كانت الطبقات الشعبية العامة لم تستوعب تعاليمه بعد مما جعل ملوك

¹ - نعيم قداح، المرجع السابق، ص 41.

² - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 345.

³ - إبراهيم الشبخلي، المرجع السابق، ص 226.

⁴ - القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 293-294.

⁵ - محمد فاضل وعلي كريدية، المرجع السابق، ص 39-40.

مالي يباشرون الدعوة بأنفسهم، وقد أصبحت المراكز التجارية مراكز للدعوة الإسلامية، فكان التجار يحضرون معهم الأفكار المتحضرة على الحكومة الإسلامية وتعاليمها، ونتيجة لتبادل الأفكار الدينية وانتشار الإسلام نشطت قوافل الحج إلى الأراضي المقدسة¹.

2- دور قوافل الحجيج:

لقد كان الحج من أهم وسائل الاتصال بين مختلف مناطق العالم الإسلامي، وبالنسبة للإفريقيين لم يكن الحج وسيلة لأداء فريضة الحج فقط بل كان مناسبة للاتصال بالمنابع الحضارية العربية، فقد كان الحجيج يعلمون كل ما يحدث في المراكز الحضارية الأخرى والأماكن المقدسة وما يدرس فيها من علوم، فقد استقبلوهم بترحيب وكرم الأمر الذي نال إعجابهم وجعلهم يتعلقون بالإسلام أكثر²، وعلى أي حال فإن اثر الحج في تطوير العلاقات بين الدولة المرينية ومملكة مالي كان ذو أثر كبير، فقد أرسل منسا موسى وهو في طريقه إلى الحج سنة (724هـ/1424م) رسالة للسلطان المريني أبي سعيد عثمان بن يعقوب يخبره بمرور قافلته بالطريق الذي تسلكه قوافل سلاطين المغرب³.

وكانت فريضة الحج بالنسبة لملوك مالي ذات أهمية بالغة فيها تتم لهم فرصة إقامة علاقات ودية وصدقات مع جيرانهم، بالإضافة إلى أنها تعزز مكانة الملك فيلقب بالحاج وهو الأمر الذي يرفع مكانته بين المسلمين، ويضفي عليه شرعية الحكم⁴.

3- دور الأسر المغاربية:

بدأت الموجات العربية تدخل بلاد السودان الغربي منذ القرن السابع للهجرة، حيث كان لهم الأثر في نشر الدين الإسلامي، بالرغم من اقترانه بظواهر غير الإسلام في بعض الأحيان مثل الحروب القبلية، النهب...، وقد شكلت هذه الهجرات روابط بين المغرب الأقصى

¹ - السعدي، المصدر السابق، ص ص 154-155.

² - إبراهيم الشبخلي، المرجع السابق، ص ص 241-242.

³ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 369-370.

⁴ - إبراهيم الشبخلي، المرجع السابق، ص ص 248-249.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

وبلاد السودان الغربي، مما أدى إلى تأسيس مراكز تجارية وثقافية مثل تمبكت في القرن الخامس للهجرة، وقبلها ولاته والتي سكنتها قبائل مسوفة وجدالة وملتونة، كما هاجرت بعض القبائل من الساحل واستقرت بها، كما تمت هجرات أخرى إلى العاصمة نياي، واستقروا بها متخذين حيا لهم أسموه حي البضان، حيث كانوا قريين من ملك مالي منسا موسى¹.

فكانت هذه القبائل داعمة للإسلام كقبائل المعقل التي دخلت تحت طاعة الدولة المرينية بفاس، لكن السلطان يوسف بن يعقوب ضاق بهم فضايقتهم فاتجهت مجموعات منهم نحو الصحراء طالبة الحرية والنفوذ والعيش، فكان لها الأثر في أخذ المبادئ الإسلامية لبلاد السودان الغربي معهم².

كما كان للهجرات المغربية الجماعية صوب بلاد السودان الأثر في نشر الإسلام فقد انتقلوا إلى هذه البلاد وعمروها منذ القرن الأول للهجرة، كما ظلت القبائل المغربية تتوسع في زحفها خاصة عند المشاكل السياسية مثل قبائل كتنة التي هاجرت من توات وولاته صوب بلاد السودان³.

ومن المعروف أن سكان تمبكت كانوا خليطا من العرب الوافدين من غدامس وطرابلس والمغرب الأقصى والطوارق فقد تزوجوا مع السكان الأصليين من تمبكت، حيث صاهر القادمون من الشمال الإفريقي عامة الشعب لدرجة أنهم انصهروا وتصاهروا في المجتمع المالي، ناقلين الثقافة العربية مع⁴.

4- دور العلماء والفقهاء:

أما عن العلماء والفقهاء فقد كان لهم الدور المهم في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء فمدينة جني مثلا قد دخلها الإسلام في القرن السادس للهجرة، على يد علماء

¹ - الحسن الوزان، المرجع السابق، ج 2، ص 36.

² - الخليل النحوي، المرجع السابق، ص 32.

³ - إبراهيم الشخلي، المرجع السابق، ص 238.

⁴ - الهادي مبروك الدالي، مملكة مالي، ص 93.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

وفقهاء البلاد¹، وقد اقتنع سكان البلاد بالإسلام ثم تحولوا لدعاة لهم يرسخون ثقافته بين القبائل الوثنية والتي جعلتها مقبولة من أبناء جنسه، بحيث سهل ذلك الاتصال والمخاطبة، وفي الكثير من الأحيان تزوج هؤلاء الدعاة من أهل البلاد، وقد أسلم ملك مالي على يد أحد الدعاة الذي قدم لتدريس القرآن فقام بتعليمه القرآن والفرائض والسنة².

وحظي العلماء والفقهاء بمكانة رفيعة منذ عهد المرابطين والموحدين كما رفعوا سلطتهم فقد أجلوهم وقربوهم منهم وكانت لهم المكانة الرفيعة بينهم حتى صارت أحكام البلاد صادرة منهم³، وقد نالوا نفس المكانة في عهد المرينيين ليس من السودانين المسلمين فقط بل من جانب الوثنيين أيضا حيث أسسوا المدارس وقد اعتبروهم معلمين لأبنائهم، كما كانت لهم كلمة مسموعة عند سلاطين مالي فقد جعلوهم من الطبقات الاجتماعية الراقية وقام هؤلاء الدعاة بدورهم بالتعريف هؤلاء الملوك بالإسلام⁴، حيث ذكر ابن بطوطة على أنه دعي لأحد المجالس التي تقام عند السلطان حيث استدعى الأمراء والفقهاء والقاضي والخطيب وذلك في عزاء مولانا الحسن وهذا دليل على المكانة التي حظر بها الفقهاء في الدولة المرينية⁵.

وفي ظل هذه المملكة المسلمة حظي العلماء والفقهاء بالاحترام والتقدير البالغ حتى أنهم صاهروا الأسر الحاكمة⁶، إضافة للدور الذي لعبه المتصوفة في نشر الإسلام، فقد أسسوا المدارس الصوفية والزوايا، وقد كانوا يدعون القبائل الوثنية المحلية لاعتناق الإسلام وعملوا على نشر الإسلام، وقد درسوا في مدارس وجامعات بالمغرب وطرابلس، كما كانت دعوتهم سلمية⁷.

¹ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 345-346.

² - إبراهيم الشيشي، المرجع السابق، ص 217.

³ - حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1980م، ص 44.

⁴ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 347.

⁵ - ابن بطوطة، المصدر السابق، ج 4، ص 255.

⁶ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 349-350.

⁷ - إبراهيم الشيشلي، المرجع السابق، ص 262.

ثانيا: الوضع الثقافي في الدولة المرينية ومملكة مالي:

1- الحواضر العلمية في الدولة المرينية:

أ- فاس:

اتسعت فاس في عهد بني مرين إذ اتخذوها حاضرة لهم، فبعدها فقدت مراكزها مكانتها كعاصمة للبلاد كان عهد جديد في تاريخ الثقافة المغربية مع مدينة فاس حيث قصدتها العلماء والتجار، وبدأت تتلقى المؤثرات من القيروان، وأصبحت فاس في منتصف القرن 8هـ واحدة من أهم المدن الإسلامية في المغرب الأقصى، خاصة بعد أن أصبحت العاصمة¹، ويرجع لها الفضل في نشر اللغة العربية محل البربرية، كما شهدت نهضة علمية مع نشأة الصرح العلمية في مقدمتها جامع القرويين، بالإضافة إل المدارس حيث شيدت فيها ست مدارس الأمر الذي كان جديدا في الساحة المغربية، بحيث كان التعليم قبل يتم في المساجد فقط سواء في العصر الموحدي أو المرابطي²، ومن بين هذه المدارس نذكر:

مدرسة الصهريج: وهي مدرسة مجاورة لمدرسة السبعين قرب جامع الأندلس³، بناها الأمير أبو الحسن علي ابن أبي سعيد عثمان (710-731هـ/1310-1331م) وكان يأذن خليفة لوالده، وقد أخذ اسم هذه المدرسة من الصهريج المستطيل الموجود بفنائها، أطلق عليها اسم مدرسة الأندلس كذلك⁴.

¹ - روجيه لوتورنو، فاس في عهد بني مرين، ترجمة نقولا زيادة، فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، 1967م، ص ص 11-9.

² - فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 420-428.

³ - علي الجزائني، المصدر السابق، ص 111.

⁴ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 430.

المدرسة الحلفائيين: بناها السلطان أبو يوسف يعقوب المريني سنة 670هـ / 1271م وكانت تقع بعدوة القرويين، واختلف في تاريخ تأسيسها، كانت تحتوي على قاعات للدروس والعبادة، ودرس بها على صنفوة العلماء¹.

المدرسة العطارين: تأسست على يد السلطان أبي سعيد الذي وضع حجر الأساس لها سنة 723هـ / 1323م مع صنفوة من علماء وفقهاء فاس، وأشرف على بناءها محمد عبد الله بن قاسم سعد الله المزداد، وقد جلب لها نخبة من الفقهاء لتدريس الفقه والنحو²

المدرسة المصباحية: شيدها السلطان أبو الحسن المريني سنة 745هـ / 1344م قرب جامع القرويين، سميت بالمصباحية نسبة إلى ضياء مصباح بن عبد الياصوبي أول من درس بها، وكانت تحتوي على نزل لطلبة.

المدرسة البوعنانية: تسمى بالمدرسة الطالعة الكبرى أرسى دعائمها السلطان أبو عنان المريني، ووقد شهدت حركة علمية وصفوة من العلماء أمثال أبو العباس أحمد الحباك³، وتعد من أجمل المدارس بفاس فقد كانت آية والإبداع كما اختلفت في بناءها على بقية المدارس بإضافة فقهاء آخرين أمثال "عبد الرحمان البكري الدلائي"، "أحمد المقري التلمساني"⁴.

وظلت فاس عاصمة المغرب الثقافية ومركز حضارتها الفكرية والأدبي طيلة فترة حكم الدولة المرينية حيث كانت موطن العلو الشرعية وبعض العلوم الأخرى مثل الفلسفة كما غلب عليها الطابع الفقهي، ويرجع الفضل في تقوية مركزها إلى أبو عنان فقد وسع خزانة القرويين

¹ - كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من نوازل فتاوى المعيار المعرب للونشريسي، الإسكندرية، مركز الإسكندرية، 1696م، ص 120.

² - الهادي مبروك الدالي، مملكة مالي، ص 130.

³ - المرجع نفسه، ص ص 132-133.

⁴ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 432-433.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

وبنى المدرسة البوعنانية بالإضافة إلى أبو سعيد الذي شيد المدرسة العظمى جانب جامع القرويين، ويعد العصر المريني العصر الذهبي لمدينة فاس¹.

وفاس الجديدة كانت على بعد ميل من المدينة القديمة مسورة من كل الجهات، شيدت في سهل بجوار النهر مؤسسها يعقوب بن عبد الحق المريني أول ملوك بني مرين وجعلها عاصمة لملكه بدلا من مراكش، وأطلق عليها اسم المدينة البيضاء لكن سكانها سموها فاس الجديدة، وبنيت فيها المدارس والجامعات²، أما ظلت فاس القديمة مركز للعلم والتجارة بينما أنشأت فاس الجديدة على أساس أن تكون قاعدة ملكية وقد شهدت نهضة عمرانية كبيرة تمثلت في بناء المساجد مثل الجامع الكبير ومن أهم مدارسها مدرسة المخزن³.

ب- مراكش:

كانت عاصمة للمرابطين ثم الموحدين، كما كانت حاضرة ثقافية كذلك، وعند قدوم المرينيين ولأسباب سياسية اضطروا لتحويل العاصمة من مراكش إلى فاس، لكنهم حرصوا على أن لا تفقد مراكش مكانتها العلمية، ومن أجل هذا أسس أبو الحسن المريني المدرسة العظمى التي تقع جنوب المسجد الأعظم⁴، ولكن رغم كل هذه العناية فإن مراكش لم تنل العناية اللازمة التي حظيت بها فاس في عصر بني مرين⁵.

¹ - نقولا زياده، المرجع السابق، ص ص 110-116.

² - حسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص ص 281-282.

³ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 433-436.

⁴ - نقولا زياده، المرجع السابق، ص ص 103-104.

⁵ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 438.

2- طرق التدريس ومراحل التعليم في الدولة المرينية:

أ- مراحل التعليم:

المرحلة الأولى:

كانت بداية تعليم الصبيان في الكتاتيب من عمر الخامسة حتى السادسة حيث يعلم القرآن والكتابة كما يحفظ أجزاء من القرآن ويتقن التجويد ويلم ببعض علوم اللغة والنحو والفقه، وعند إتمام دراسته يرسل الأب هدية للإمام شكرا لما علمه.

المرحلة الثانية:

فتكون في دور العلم من مساجد وزوايا ومدارس¹، فمثلا جامعة القرويين كان تشترط ضوابط معينة للالتحاق بها أولها أن يكون الطالب قد درس في الكتاتيب كما أنها تحدد سن معين، وكان الأساتذة المحاضرين فيها يحضرون دروس في العلوم الأخرى أما الدروس التي كانت تدرس فهي الأدب والشعر والنثر وعلوم العروض والقافية وأسرار الحروف والعلوم الكونية ولكن العناية الأكثر كانت بعلوم اللغة، وقد أشرف عليها كبار الأساتذة والعلماء في القرن الثامن للهجرة، كما كانت ملتقى علمي لمختلف الشيوخ والفقهاء، ولم تقتصر على تدريس طلاب الشمال الإفريقي فقط بل حاولت إيصال العلم حتى جنوب الصحراء، وذلك عن طريق إرسال وفود من العلماء إلى السودان الغربي خاصة من مالي كما استقبلت الطلاب منها.²

ففي فترة أبي عنان شجع العلم فقد كان يعقد مجلسا بعد صلوات الصبح ويحضره أعلام الفقهاء والطلبة، كما كان يعقد مجالس علم في حضرة أبو عبد الله محمد بن المقرئ القرشي التلمساني، ولم تقتصر هذه المجالس على الرجال فقط بل حضرتها النساء مثل السيدة سارة بنت أحمد عثمان (ت 750هـ/1349م) حيث تبادلت الشعر مع ابن رشيد الفهري، كما اشترط أبو يوسف المريني (685-706هـ/1286-1306م) على ملك أشيلية منحه جميع

¹ - كمال السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص ص 113-115.

² - فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 425-427.

المخطوطات العربية التي أخذت من المسلمين حيث حمل منها ثلاثة عشر حملا إلى مدينة فاس في شتى العلوم¹.

ب- المذهب المالكي في الدولة المرينية:

أما فيما يخص المذهب الديني فقد عمل بنو مرين على استعادة المذهب المالكي لمكانته في السلطة، فقد اهتم به السلاطين أنفسهم كأبي حسن المريني، الذي كان الفقيه المالكي عبد الرحمان بن عفاف الجزولي يحضر مجلسه، وكان محور التعليم في الدولة وأبو عبد الله وردياني أحمد كبار الفقهاء كان يعرف كل المذاهب إلا أنه كان يرجح المذهب المالكي عليها².

كما شهد العصر المريني ازدهار العلوم الدينية والتفسير والحديث والفقه وتوسعت دراستها، فقد اهتم سلاطين بن مرين بها باعتبارها المصدر الرئيسي للتشريع الإسلامي، حيث برزت فيه شخصيات مثل محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن جابر الفيصاني المكناسي ومن مؤلفاته نظم رجل الحلية، كما اهتم بن مرين بالتفسير وذلك باعتباره المصدر الثاني للتشريع الإسلامي ومن أشهر علمائه محمد بن عابد بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي المكناسي حيث كان إمام التفسير في الدولة المرينية³.

ج- التصوف في الدولة المرينية:

لقد كان للتصوف الدور الكبير في الحركة الفكرية حيث امتاز العصر المريني بظهور عدد كبير من المتصوفة، ولم يشعر سلاطين بني مرين بأي خطر من امتداد نفوذهم⁴، وبالغ السلطان أبو الحسن في الإحسان بجميع الشرفاء، فقرب مكانتهم وقضى حاجتهم، وعلى منازلهم،

¹ - الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص ص 124-126.

² - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص ص 340-341.

³ - مروة عيدان، "مدينة مكناسة والزيتونة الدراسة في الأحوال السياسية والعلمية في العصر الموحيدي وبني مرين"، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، ع 26، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة بابل، 2016م، ص ص 715-718.

⁴ - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 355.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

وراعى مسائلهم واختارهم الأقرب نسبا لهم¹، فقد تطلب بناء حضارة الدولة المرينية المزيد من الحركة الفكرية، فقد بنى السلطان أبي الحسن المريني مسجد العيادي بالقرب من المتصوفة أبي مدين شعيب، وكان المسجد آية من آيات الفن المعماري في العصر المريني، كما بنى أبو عنان المريني مسجدا لقطب آخر من المتصوفة وهو الحلوي، وكل هذا خدمة للحركة الفكرية والحضارية في الدولة المرينية².

وانقسم المتصوفة إلى فئتين أحدهما يمتاز أصحابه بالتطرف والبدع وهم أصحاب التيار الصوفي الفلسفي، والثاني امتاز بالاعتدال والسماحة وهم أصحاب التصوف السني، ومن فرق الصوفية المتطرفة نذكر العكازية أو الفقرية الذين حللوا ما حرم الله وقد انتشرت زواياهم في المغرب الأقصى، وهناك فترات شهدت بلاد المغرب الأقصى نمو في التيار الصوفي، وقد كان من الممكن أن ينتهي بالفوضى، فقد تجاوز بعض هؤلاء المتصوفة حدود الدين، وحاول بنو مرين التحكم في ذلك بإخضاعه لقواعد السنة الفقهية³.

أما المعتدلين فقد انقطعوا بالعبادة والصيام وتلاوة القرآن وتعليم أبناء المسلمين، وسعوا في قضاء حوائجهم وكان يترأسها شيخ الطريقة⁴، مثل الطريقة القادرية والتي دخلت الشمال الإفريقي على يد الدعاة خاصة في مراكش على يد العالم أبي مدين غوث، والذي قابل مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني في مكة أثناء تأدية فريضة الحج، وقد ذاعت شهرته في مدينة فاس كما انتشر في مراكش أكثر ومنا وصل إلى بلاد السودان الغربي⁵.

¹ - علي الجزنائي، المصدر السابق، ص 29.

² - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 355.

³ - إبراهيم الشيخلي، المرجع السابق، ص 217.

⁴ - كمال السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص 105-108.

⁵ - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 355-357.

ثالثاً: الوضع الثقافي في مملكة مالي:

1- الحواضر العلمية:

إن توسع الحركة العلمية في بلاد السودان الغربي، نتج عنها ظهور حواضر علمية كانت منارة تضيء درب السالكين والمتعطشين للعلم والمعرفة، ونذكر منها:

أ- تنكيت:

هي من المراكز الحضارية الكبر في بلاد السودان الغربي، تأسست نهاية القرن الخامس للهجرة (490هـ-1096م) على يد الطوارق بعد اضمحلال مملكة غانا الوثنية وقد ازدهرت ثقافياً بعد تراجع ولايته¹، وقد جعلها منسى موسى منارة للعلم ونشر الدين الإسلامي حيث أصبحت مركزاً للعلم والتدريس، وقصدها الطلاب من شتى أنحاء إفريقيا حيث درسوا شؤون الدين والعلوم والأخرى².

ويعد القرن الثامن للهجرة القرن الذهبي لمدينة تنكيت، فقد وصلت إلى درجة وافر من العلم³، وقد اكتسبته من سنوات فتراتها الحضارية يعكس ذلك منذ عهد المرابطين والموحدين فقد تبوأ مكانة حضارية مرموقة، فمساجدها مثلاً كانت منارة للعلم والمعارف والعلوم، وقد كانت بمثابة مدارس⁴، ومن أهمها جامع سنكري⁵ والذي قام بنفس مهمة المعاهد والمدارس

¹ - مقاديم عبد الرحمان، المرجع السابق، ص ص 168-169.

² - جوان جوزيف، المرجع السابق، ص 75.

³ - الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص 97.

⁴ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 443.

⁵ - جامع سنكري: بنته سيدة ثرية تعرف باسم سنكري، حيث ضم هذا الجامع نخبة من الفقهاء والعلماء أكثرهم من قبيلة جدالة، تخرج منها علماء كان لهم أثر في نشر الإسلام والثقافة العربية، وقد وصلت طائفة منهم إلى مركز الإمامة، وتميزا بالنحو واللغة والأدب والتفسير والحديث. ينظر: عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص ص 163-165.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

ببلاد المغرب الأقصى، فقد كنت مواكبة للعلم وانتقل لها العلماء، كما جلب لها منسى موسى صفوة من العلماء وتوافد عليها الطلاب من جامعة القرويون وطرابلس وغدامس¹.
كما وصفها السعدي قائلاً: "مؤوى العلماء والعبدين وملاذ الأولياء والزاهدين، ملتمقى الفلكي والسيار وقد سكنها الأخيار من العلماء والصالحين..."²، حيث حملت لها الكتب من كل بقاع العالم وتم نسخها وبيعها في أسواقها كما أقبل عليها العلماء والطلاب والذين أسسوا مدارس بها ومكتبات حيث وصلت مكتبة العالم الواحد إلى ألفي كتاب³.

ب- غاو:

تعتبر من المدن الكبرى في بلاد السودان الغربي وثاني حاضرة ثقافية في مملكة مالي، بدأت تتوسع في القرن الخامس للهجرة فبنيت بها المساجد والقصور لتصبح قبلة للكثير من العلماء من بلاد المغرب والصحراء⁴، حيث تمتعت المدينة بقدر كبير من الثقافة والمعرفة جعلت الباحثين يضعونها في نفس مكانة تنبكت وجني ولتفوقها العلمي فقد كانت بذلك عاصمة الفكر الإسلامي⁵، كما توافد عليها التجار المغاربة وسعوا لنشر العلم والدعوة الإسلامية بين ساكنيها، وقد استقبلت الطلاب الوافدين إليها من المملكة والمناطق المجاورة كما احتضنت مجالس العلم⁶.

ج- جنى:

تعتبر ثالث مدينة من حيث الأهمية التجارية والحضارية بعد تنبكت وغاو، قد دخلها الإسلام زمن المرابطين⁷، لذا تعد من أعمق المواقع التي وصل إليها الإسلام في بلاد السودان

¹ - الهادي مبروك الدالي، مملكة مالي، ص 107.

² - السعدي، المصدر السابق، ص ص 20-27.

³ - الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص 109.

⁴ - مقاديم عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 70-71.

⁵ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 454.

⁶ - سمية تونسي، المرجع السابق، ص 329.

⁷ - مقاديم عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 73.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

الغربي، وقد شكلت العاصمة الثقافية لمملكة مالي، ولم تتطور بها الثقافة مثلما وصلت له في القرن الثامن للهجرة، ومن أشهر الأسر العلمية التي أنجبتها أسرة بغيغ¹، وقد توافد عليها العلماء وأسسوا بها مساجد واتخذوها مدارس لتعليم الصبيان القرآن الكريم والعلوم الإسلامية واللغة العربية حيث أصبحت تضاوي تنبكت في ازدهارها الثقافي²، حيث قال عنها السعدي "وقد ساق لها الله العلماء والصالحين ومنهم مورمغ كانكي والذي أسرع له الطلبة لأخذ العلم منه حيث سكنها أواسط القرن التاسع للهجرة وكان من علمائها الصالحين العابدين³، حيث يقال أن انتشار الإسلام في هذه الحاضرة تم بفضل 4200 عالم انتقلوا إليها، واستمر تدفق العلماء عليها بفضل تشجيع سلاطين مملكة مالي خاصة منسى موسى والذي أرسل بطلب الفقهاء من بلاد المغرب⁴.

أما عن مدينتي نياني وأودغست، فقد كانت نياني حاضرة مملكة مالي ازدهرت في عهد منسى موسى، الذي قام بإرسال الطلاب للمراكز الإسلامية مثل طرابلس، كما اشترى الكثير من الكتب من شتى الأمصار الإسلامية، وعن أودغست فتعتبر من المراكز الإسلامية ولعبت دورا كبيرا في نشر الإسلام والثقافة المغاربية فقد كانت المركز الأول للإسلام لبلاد الأندلس كما كان لها الأثر في نشر الأفكار والثقافة العربية عن طريق التجار والمسافرين والعلماء⁵.

¹ - أحمد الشكري، المرجع السابق، ص ص 214-215.

² - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 45.

³ - السعدي، المصدر السابق، ص 21.

⁴ - نجاة مباركي، الحواضر الإسلامية ودورها في السودان الغربي حاضرة جني نموذجا خلال (6-10هـ/ 12-16م)، قسم العلوم الإنسانية، تخصص تاريخ جنوب الصحراء، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم السياسية، أدرار، 2020م، ص 43.

⁵ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 457. عصمت دندش، المرجع السابق، ص ص 157.

2- التعليم في مملكة مالي:

أ- المرحلة الأولى (التعليم الابتدائي):

وهي المرحلة الأولى لتعليم الطفل الكتابة والقراءة، وقد عرفت هذه المرحلة في جميع أنحاء العالم الإسلامي وتضم هذه المرحلة الطلاب من خمس سنوات حتى سبع سنوات¹، حيث ارتاد الصبيان الكتاتيب لتعلم القرآن على الطريقة المغربية وذلك عن طريق التهجي وترديد الآيات القرآنية، ويكون تحت رقابة المعلم حيث يحفظ القرآن كله أو نصفه، ويكون قد استوعب قسطاً من قواعد اللغة والنحو، أما عن المعلم فهو يحصل على مبلغ كل أسبوع فضال عن الهدية التي تقدم له عند الختم والأعياد².

ب- المرحلة الثانية (التعليم العالي):

بعد انتهاء الطالب من مرحلة التعليم في الكتاب، يدخل مرحلة التعليم في حلقات المساجد ومن بعدها المدارس، والتي لم يراعى فيها سن معين³، وينتقل الشاب في هذه المرحلة لتعلم على يد فقهاء مغاربة أو سودانيين وذلك في رحاب المساجد أو المنازل الفقهية⁴، وتعتبر هذه المرحلة أشد صعوبة وأكثر عمقا من المرحلة السابقة، أما المنهج المتبع في هذه المرحلة فيشمل الكتب الأكثر سهولة ووضوحاً، أم المواد المدرسة فقد شملت الفقه والنحو الفرائض والبلاغة وكانت نفسها التي تدرس في بلاد المغرب الأقصى⁵.

واهتم علماء تنبكت بتدريس الكتب التي كانت تدرس في المعاهد العلمية في الشمال الإفريقي منها: الموطأ للإمام مالك، والمدونة والمختصر، ومختصر الخليل وألفيه العراقي ومقدمة

¹ - مقاديم عبد الرحمان، المرجع السابق ص 57.

² - أحمد الشكري، المرجع السابق، ص ص 112-113.

³ - مقاديم عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 59.

⁴ - أحمد الشكري، المرجع السابق، ص 113.

⁵ - مقاديم عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 60.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

التاجوري وصحيح البخاري وصحيح المسلم، كما لم تكونوا الدراسة تخضع لوقت زمني معين فقد تستمر مدة طويلة أو قصيرة وهو نفس الأمر في الدولة المرينية¹.

وقد احتل جامعة سنكري الريادة في هذا التعليم حيث قصد جميع السودانيين داخ البلاد وخارجها كما كانت تحت ظل كبار العلماء والمتخصصين في العلوم الفقهية واللغوية²، وقد افتتحت على العديد من المراكز والشمال الإفريقي وبالتحديد مراكش وفاس حيث كانت تتشابه مع جامعة القرويين بفاس في أسلوب التدريس ومناهجه وقد اشتغل رجالها بالعبادة والتدريس في نفس الوقت مثل الفقيه محمود بن عمر بن محمد آقيت³، والإمام للفقيه أندغ محمد بن أحمد⁴ ابن الفقيه المختار النحوي⁵.

¹ - الهادي مبروك الدالي، مملكة مالي، المرجع السابق، ص 107-108.

² - مقاديم عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 60.

³ - الفقيه محمود بن عمر بن محمد آقيت بن علي بن يحيى الصنهاجي (955-868هـ/1463-1548م): هو ابن الفقيه عمر بن محمد آقيت، لقب بشيخ الإسلام، تتلمذه علي يد والد أحمد بابا التنبكتي الشيخ أحمد بن أحمد آقيت، واشتهر بعلمه وصلاحه وعدله في القضاء، فقد كتب عنه التنبكتي، قائلاً: "عالم التكرور وصلحها ومدرسها وفقهها بلا مدافع، كان من خيار عباد الله الصالحين". تتلمذ علي يد والده عمر بن محمد وخاله المختار النحوي، تولى القضاء في سنة 904هـ/1498م في زمن الأسكيا محمد الكبير، سافر إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج سنة 915هـ/1509م، أين التقى خلالها ببعض الشيوخ كالقاني والقلقشندي وإبراهيم المقدسي، ثم رجع إلى تنبكت فجلس للتدريس. ينظر: أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج. أبو بكر إسماعيل محمد ميقا، "أشهر علماء تنبكت وعاو و جني وأثرهم في ازدهار الحركة العلمية الثقافية في مدن السودان الغربي القرون الثامن والتاسع والعاشر هجرية"، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ع 11، محرم 1415هـ/جويلية 1994م، الرياض، ص 222.

⁴ - محمد بن أندغ محمد: أحد فقهاء وعلماء تنبكت برع في شتي العلوم والمعارف منها الفقه والنحو وامتحن القضاء بتبنت، وله تأليف شرح الحسن علي الآجرومية. ينظر: محمد بن عبد القادر مولاي وسياب خيرة، "الأسر العلمية في بلاد السودان الغربي (10هـ/12م) (16م/18م)"، مجلة الساور للدراسات، جامعة بشار، ع 2، مج 6، 2020م، ص 25.

⁵ - الهادي مبروك الدالي، مملكة مالي، ص 106.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

ومن هذا يمكننا القول أن المدارس في مملكة مالي كادت أن تكون مغربية، فالمدرس عندما يدرس هناك كأنه يدرس بفاس أو مراكش كما حملت مؤسساتها العلمية نفس أسلوب التدريس بالمغرب.

رابعاً: التأثير الثقافي المريني على المجتمع المالي:

1- مجال التعليم:

إن اعتناق الإسلام من طرف سكان مالي وجعله الدين الرسمي للبلاد فرض عليهم تعلم شرائعه، خاصة الصلاة والتي تقام باللغة العربية مما أنتج ضرورة تعلم اللغة العربية وإتقانها. لقد أصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية للبلاد وذلك من قول القلقشندي أن منسا موسى كان يجيد اللغة العربية، كما قال أن بهذه المملكة وزراء وقضاة وكتاب للدواوين، وأن السلطان لا يكتب شيئاً في الغالب بل يوكل إلى أمر إلى وظيفته من هؤلاء فيفصله وكتابتهم بالخط العربي على الطريقة المغاربية¹.

وقد أسهمت الرحلات المغربية إلى بلاد السودان الغربي بنشر اللغة العربية فقد كان القراء المسلمين يدرسونهم وكان منهم قضاة ومفسرين، كما أصبحت اللغة العربية لغة المراسلات بين ملوك مالي وغيرهم²، حيث كانت كتابتهم على الطريقة المغاربية في الخط واعجام الحروف وترتيبها، وإذ رجعنا إلى كتب الدراسة عندهم فإننا نجد أغلبها نفس الكتب التي تدرس بفاس وتونس والقاهرة مثل الشفا للقاضي عياض والبسيط والتعريف في علم التصوف للمكودي وغيرها من الكتب وهذا دليل على أن سكان مالي أصبحوا يتقنون اللغة العربية ويستطيعون دراسة كتبها³.

وإلى جانب دراسة السودانيون للمؤلفات المغربية وروايتهم لها بالسند والاعتماد، فقد وضعوا الشروح والحواش والتعليق على بعضها أو اختصروها مثل الشرف محمد بن الإمام أحمد الإدريسي قد شرح كتاب البسط والتعريف للمكودي وشرح عبد الله بن محمد البوحسني إضاءة

¹ - القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 298.

² - فريد المهندس، المرجع السابق، ص 353.

³ - أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد حجي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1981م، ص 10.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

اللجنة للمقري، وشرح متن الأجرومية لكل من عبد الله أند عبد الله بن أحمد الولاقي والقاضي أحمد أندغ محمد بالفتوح القومية وغيرها من الشروحات¹.

لا شك أن من استطاع إدخال الإسلام في ذهنيات السودان الغربي هم المتصوفة أكثر من غيرهم فقد اختلطوا بطبقات الشعب المختلفة وتعايشوا مع الفقراء والعامّة إضافة لتقديمهم خدمات اجتماعية مما مهد انتشار الطرق الصوفية تماشياً مع البيئة الإفريقية وعاداتهم وتقاليدهم²، حيث كان أسلوب المتصوفة مميّزاً بعيداً عن أسلوب التجار الذين نزلوا بالمدن، فإن الرجال الصوفية كانوا يميلون إلى القرى والأرياف، كما أنهم لم يكثرثوا للمال فقد عملوا على تصحيح العقيدة الإسلامية في ذهنيات السودانيين بعدما اختلطت بالمعتقدات الوثنية³.

ومن بين الطرق الصوفية الطريقة القادرية التي دخلت بلاد السودان الغربي خلال القرن التاسع للهجرة بواسطة مهاجرين من توات وولايته⁴، حيث اتخذوا ولايته مركز دعوتهم، ويرجع الفضل في ازدهار هذه الطريقة إلى قبيلة كنت العربية والتي تعد من أهم القبائل في السودان الغربي، وقد كانت هذه الطريقة من أوسع الطرق انتشاراً وأعمقها في بلاد السودان الغربي، ومن أهم شخصياتها: مختار الكنتي، وقد كان أتباع هذه الطريق يرسلون أولادهم للدراسة في القيروان⁵، حيث ارتبط الإسلام بالصوفية كثيراً بحيث أصبح الفرد مسلماً قادرياً، ومن غير العادة أن يكون مسلماً غير منتسباً للطريقة الصوفية، حيث كانوا يؤمنون بخوارق العادات لدى هؤلاء المتصوفة، كما انتسبت لهم صفة الأولياء الصالحين، كما كان يتبرك بهم الناس⁶.

¹ - البرتلي، المصدر السابق، ص 11.

² - إبراهيم الشبخلي، المرجع السابق، ص 258.

³ - محمد فاضل علي باري، المرجع السابق، ص 42.

⁴ - الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق، ص ص 102-103.

⁵ - إبراهيم الشبخلي، المرجع السابق، ص ص 261-262.

⁶ - عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص 255.

الفصل الثاني المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية والسودان الغربي

ومما يؤكد تأثير المغرب على مملكة مالي ظهور علماء أجلاء ومؤلفاتهم كالكاتب موسى والذي أرسله السلطان منسا موسى لفاس للأخذ عن فقهاءها، وتقلد منصب القضاء بتنكت، والفقير عبد الرحمان والذي كان قاضيا في نيامي عاصمة مالي أيام السلطان منسا سليمان، الفقيه عبد الرحمان السعدي والذي أمر الناس بقراءة القرآن بعد صلاة العصر¹، محمد آقيت بن عمر بن علي بن يحيى التكروري التنبكتي وقد عرف بالحاج أحمد وهو جد العلامة أحمد بابا التنبكتي، وقد كان يستنسخ كتبه بنفسه وألف في العديد من العلوم واشتغل القضاء بتنكت وعند رحلته للحج التقى بجلال الدين السيوطي وأخذ عنه.²

ومن مظاهر ذلك أيضا الرحلة في طلب العلم عبد الرحمان التميمي الذي رحل لفاس لدراسة الفقه المالكي ثم عاد لتنكت، وأخذ أبو بكر التواجيوي عن أحمد الحبيب اللمطي السحلماسي، وأخذ الفقيه عبد الرحمان بن جنب بن القاضي عبد الله الشنجيبي العلم عن عدة أشياخ الذين أدركهم في المغرب الأقصى مثل أبي مدين القاضي الأكبر³.

شهدت الدولة المرينية نهضة علمية، انعكست على مملكة مالي الإسلامية، وذلك نتيجة للعلاقات التي كانت تجمع بين البلدين، حيث انتهجت مملكة مالي نفس مراحل التعليم في الدولة المرينية، بحيث كادت مدارس التعليم في مالي أن تكون مغربية، حيث درست نفس الكتب بنفس الأساليب والوسائل، حتى طريقة الكتابة كانت مغربية، فبرزت مراكز ثقافية في مملكة مالي نافسة المراكز العلمية في الدولة المرينية لتصبح قبلة الطلاب من الدولة المرينية.

¹ - أحمد الشكري، المرجع السابق، ص 218.

² - الهادي مبروك الدالي، مملكة مالي، المرجع السابق، ص 111.

³ - البرتلي المصدر السابق، ص 13.

خاتمة

بعد دراستنا لموضوع " علاقة الدولة المرينية مع بلاد السودان الغربي على عهد مملكة مالي الإسلامية ما بين القرنين (6-9هـ/12-15م) " توصلنا إلى مجموعة من النتائج، من أهمها:

لقد كانت مملكة مالي أهم الكيانات السياسية القائمة في بلاد السودان الغربي أيام حكم بني مرين، والتي قضت على أغلب الكيانات السياسية التي سبقتها في حكم المنطقة، ولم تكتفي بهذا بل اتجهت إلى إقامة علاقات خارجية أبرزها مع الدولة المرينية ببلاد المغرب الأقصى، والتي سعى كل طرف منها لدفع هذه العلاقات لآفاق أوسع، وعليه فقد مثلت العلاقات الدبلوماسية بينهم بعدا إستراتيجيا في السياسة الخارجية وعاملا في تغلغل المرينيين في إفريقية والتواصل السياسي مع المسلمين السودان الغربي، ما يدل على الحيوية السياسية بينهم وانفتاحها، رغم أن ذلك التواصل جاء تتويجا لعلاقات تجارية عميقة بين البلدين، لذا سعى الجانبين لتنميتها وتعزيزها، فقد كان ازدهار مدن المغرب وموانئه يعود بالفضل لتجارة الذهب الواردة من بلاد السودان الغربي، فكانت الدولة المرينية صلة وصل بين المورد والمستورد.

وكانت تجارة الذهب محركا سياسيا ودافعا قويا للتواصل الدبلوماسي بين الطرفين، نتج عنه علاقات ود بينهما، وظهر ذلك من خلال تبادل السفارات والهدايا، ولعل زيارة ابن بطوطة لمملكة مالي هي أشهر سفارة دبلوماسية، وأكد العديد من الباحثين والمؤرخين أن رحلته هذه كانت مهمة رسمية قام بها بتكليف من السلطان المريني أبي العنان لاستكشاف بلاد السودان الغربي، ومعرفة إمكانيات مالي الاقتصادية، من أجل دراسة عملية للطرق والمسالك التجارية بين الدولة المرينية ومملكة مالي، لأجل الوقوف على الحجم الحقيقي لتجارة الذهب بين مالي ومصر، ولمعرفة الأسباب التي أدت على انحراف المحاور التجارية نحو الشرق نحو مصر، من أجل العمل على تحويلها ما أمكن نحو المغرب المريني، في نفس الوقت كشف الباحثون عن الدور السلبي لرحلة ابن بطوطة في انقطاع السفارات بين الطرفين إضافة لعوامل أخرى تخص الدولتين.

وفي ميدان العلاقات الاقتصادية والنشاط التجاري بين الدولتين، توصلنا إلا أن هذه العلاقات ما هي إلا امتداد للعلاقات التجارية التي عرفتها بلاد المغرب الأقصى مع بلاد السودان الغربي منذ زمن بعيد، ويرجع ذلك للقرب الجغرافي ولخلو أية عوائق طبيعية بينهما تمنع حركة القوافل التجارية، وذلك بفضل شبكة الطرق التي أسهمت بدور كبير ومباشر في عملية التبادل التجاري بينهما، مما أدى إلى بروز وبناء عدة مراكز تجارية التي كانت مزدهرة بالعديد من السلع التجارية المغربية والسودانية، وأهم سلعتين كانت تحملهما القوافل الصحراوية هما الذهب والملح اللذان مثلا العمود الفقري في قائمة المبادلات التجارية بينهما فضلا عن الرقيق السوداني.

ولم تقتصر العلاقات بين حكام الدولتين على تبادل الهدايا والسفارات أو المبادلات التجارية فقط، بل انتقلت إلى تبادل الأفكار والسلوكيات حيث تسربت المظاهر الاجتماعية المرينية للمجتمع المالي، من مآكل وملبس ومسكن وعادات وتقاليد، واختفت تدريجيا بعض السلوكيات السيئة أو المستهجنة في مملكة مالي، والتي ذكرها ابن بطوطة كظاهرة العري والتي اختفت تدريجيا خاصة في المناطق الحضارية، كما ظهر تأثير العمارة المغربية المرينية على العمران السوداني.

أما فيما يخص التواصل الثقافي بين المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي، فقد كانت منذ زمن بعيد حالها حال العلاقات التجارية، وكان للسفارات الرسمية بين فاس ومالي انعكاس حضاري كبير على البلاط المالي، فقد أصبح الخط المغربي هو الخط الرسمي في المملكة، بالإضافة للمذهب المالكي وذلك بفضل التجار والفقهاء والجاليات المغاربية التي استقرت بمالي، وعملت على نقل مبادئ الإسلام لهذه البلاد، بحيث كادت أن تكون المدارس في مملكة مالي نفسها في الدولة المرينية، لأنها انتهجت نفس طرق ومناهج التدريس المرينية، وبفضل هذه النهضة العلمية التي عرفتها مملكة مالي نتج عن ذلك مؤلفين أنتجوا مؤلفات في العديد من العلوم الإسلامية، كما ازدهرت الرحلات العلمية بين الدولتين.

ملاحق

الملحق رقم 1: ملوك الدولة المرينية في مرحلة الضعف¹

اسمه	كنيته	فترة حكمه	موته، أو خلعه
محمد ابن أمير المؤمنين أبي عنان	أبو زياد	759هـ-1358م	759هـ-1358م
أبي بكر السعيد ابن أبي عنان	أبو يحيى	759هـ-1358م	760هـ-1359م
إبراهيم ابن أبي الحسن	أبو سالم	760هـ-1359م	762هـ-1361م
تاشفين ابن أبي الحسن	أبو عمر	762هـ-1361م	763هـ-1363م
المتوكل على الله بن أبي عبد الرحمان بن أبي الحسن	أبو زياد	763هـ-1363م	767هـ-1366م
عبد العزيز ابن أبي الحسن	أبو فارس	767هـ-1366م	774هـ-1373م
السعيد محمد بن عبد العزيز ابن أبي الحسن	أبو زياد	774هـ-1373م	776هـ-1375م
المستنصر بالله أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن	أبو عباس	775هـ-1374م	786هـ-1384م
المتوكل على الله موسى ابن أبي عنان	أبو فارس	786هـ-1384م	788هـ-1386م
المستنصر بالله محمد بن أبي العباس أحمد	أبو زياد	788هـ-1386م	788هـ-1386م
الواثق بالله محمد أبي الفضل بن أبي الحسن	أبو زياد	788هـ-1386م	789هـ-1387م
أحمد ابن أبي سالم بنو أبي الحسن		789هـ-1387م	796هـ-1394م
المستنصر بالله عبد العزيز بن أحمد بنو أبي سالم	أبو فارس	796هـ-1394م	799هـ-1397م
المستنصر بالله عبد الله بن أحمد بن أبي سالم	أبا عامر	799هـ-1397م	800هـ-1398م
عثمان ابن أحمد بن أبي سالم	أبا سعيد	800هـ-1398م	833هـ-1430م

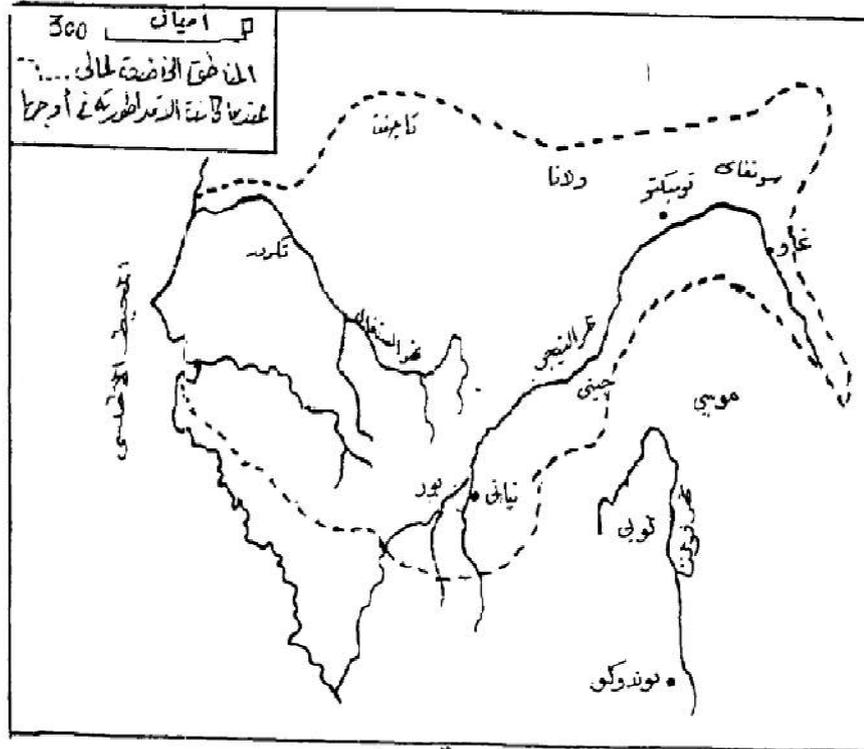
¹ - نقلا عن ابن الأحرر، روضة السرين، ص ص: 30-41.

الملحق رقم 2: ملوك مملكة مالي¹

الملك	بداية حكمه	خلعه أو موته
موسى ديجيو الأكوي	1200هـ/597م	1218هـ/615م
ناري فامغان بن الأكوي	1218هـ/615م	1230هـ/628م
سندياتا كيتا أو ماري جاطة	1230هـ/628م	1255هـ/653م
منسا ولي ابن ماري جاطة	1255هـ/653م	1270هـ/669م
منسا بن ماري جاطة	1270هـ/669م	1274هـ/673م
خليفة بن ماري جاطة	1274هـ/673م	1275هـ/674م
أبو بكر بن بنت ماري جاطة	1275هـ/674م	1285هـ/684م
ساكورة (مغتصب للعرش)	1285هـ/684م	1300هـ/700م
قو بن ماري جاطة	1300هـ/700م	1305هـ/705م
محمد بن قو بن ماري جاطة	1305هـ/705م	1310هـ/710م
أبو بكر بن أخت ماري جاطة	1310هـ/710م	1312هـ/712م
منسا موسى بن أبي بكر	1312هـ/712م	1337هـ/738م
منسا مغا الأول بن موسى	1337هـ/738م	1340هـ/741م
منسا سليمان	1340هـ/741م	1360هـ/762م
قنبتا بن سليمان	1360هـ/762م	
ماري جاطة الثاني	1360هـ/762م	1374هـ/776م
موسى الثاني بن ماري جاطة الثاني	1374هـ/776م	1387هـ/789م
منسا مغا الثاني بن موسى الثاني	1387هـ/789م	1388هـ/791م
صندكي (مغتصب للعرش)	1388هـ/791م	1390هـ/793م
مغا الثالث	1390هـ/793م	
محمود ولقبه منسا مغا	1392هـ/795م	
محمد الأول	1484هـ/886م	

¹ - فريد المهندس، المرجع السابق، ص ص 486 487.

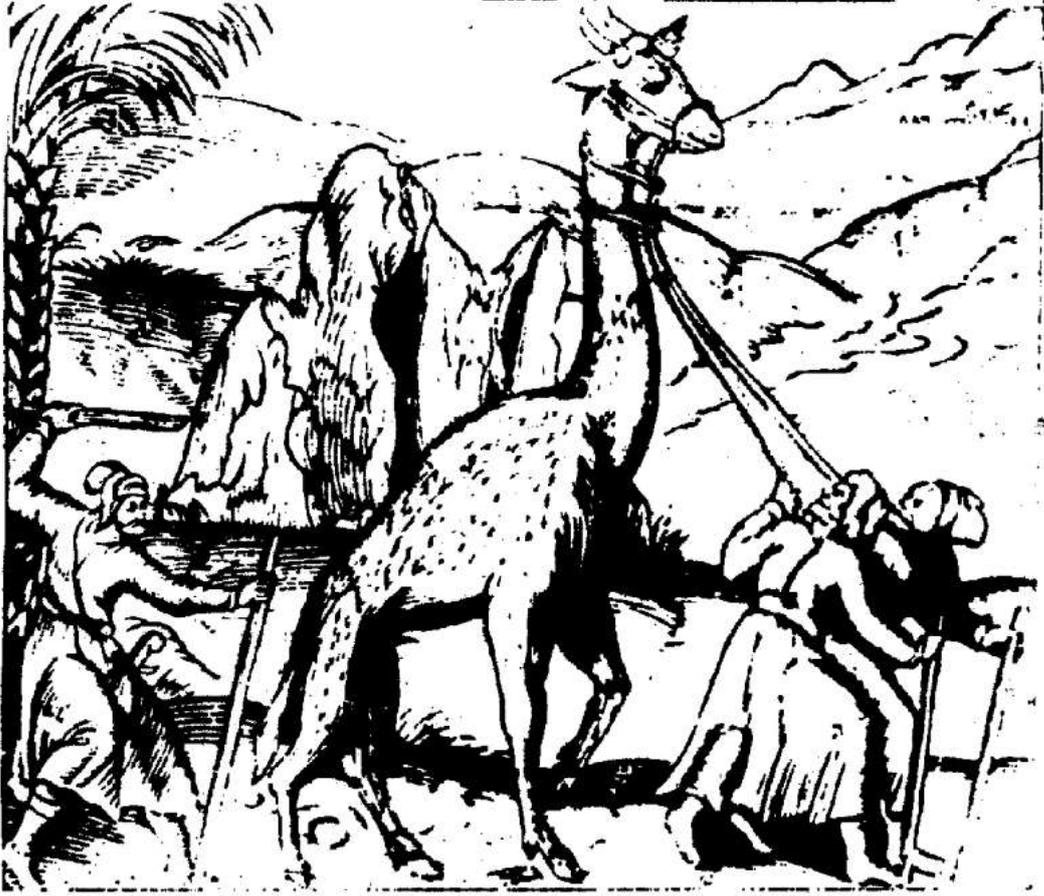
الملحق رقم 3: خريطة إمبراطورية مالي



امبراطورية مالي

ينظر: أحمد الفيتوري، المرجع السابق، ص 260.

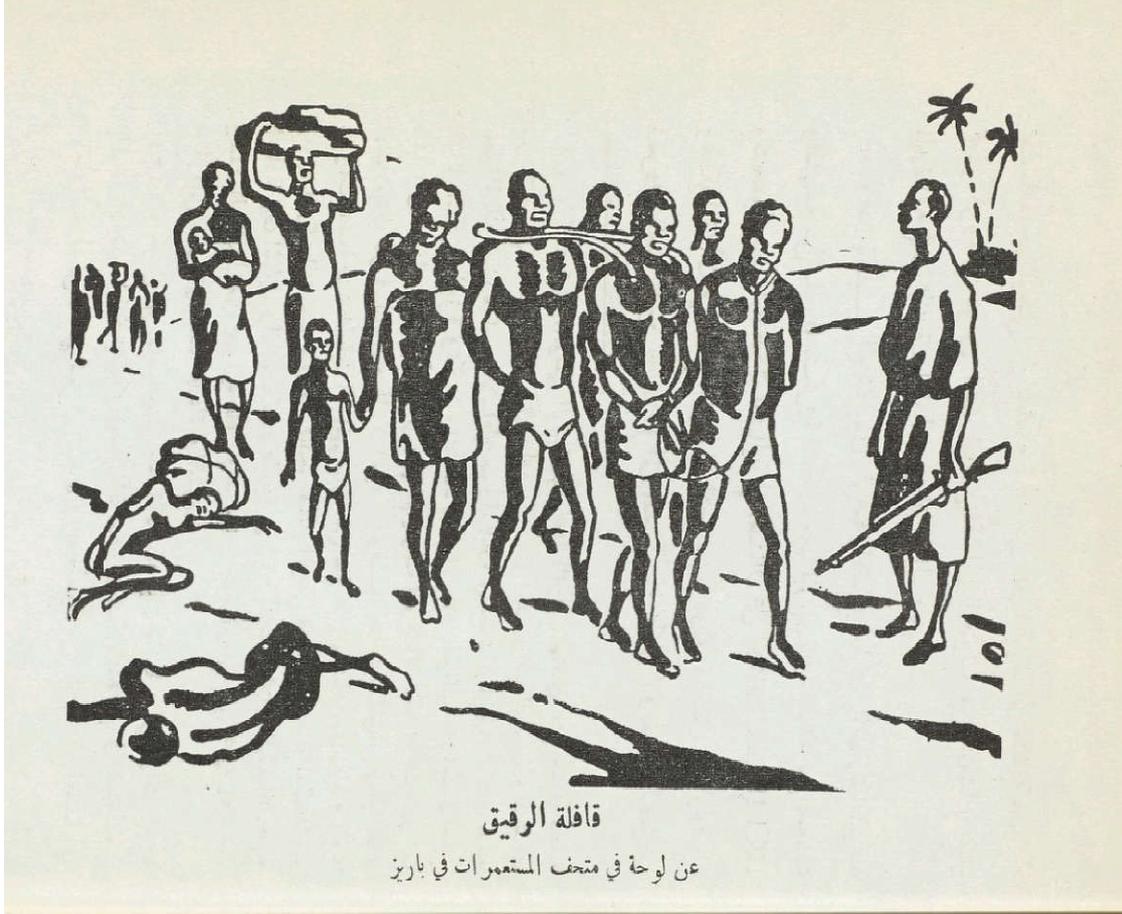
الملحق رقم 4: هدية السلطان المالي إلى السلطان المغربي أبي الحسن المريني



الزراف (عن ابروازداسير)

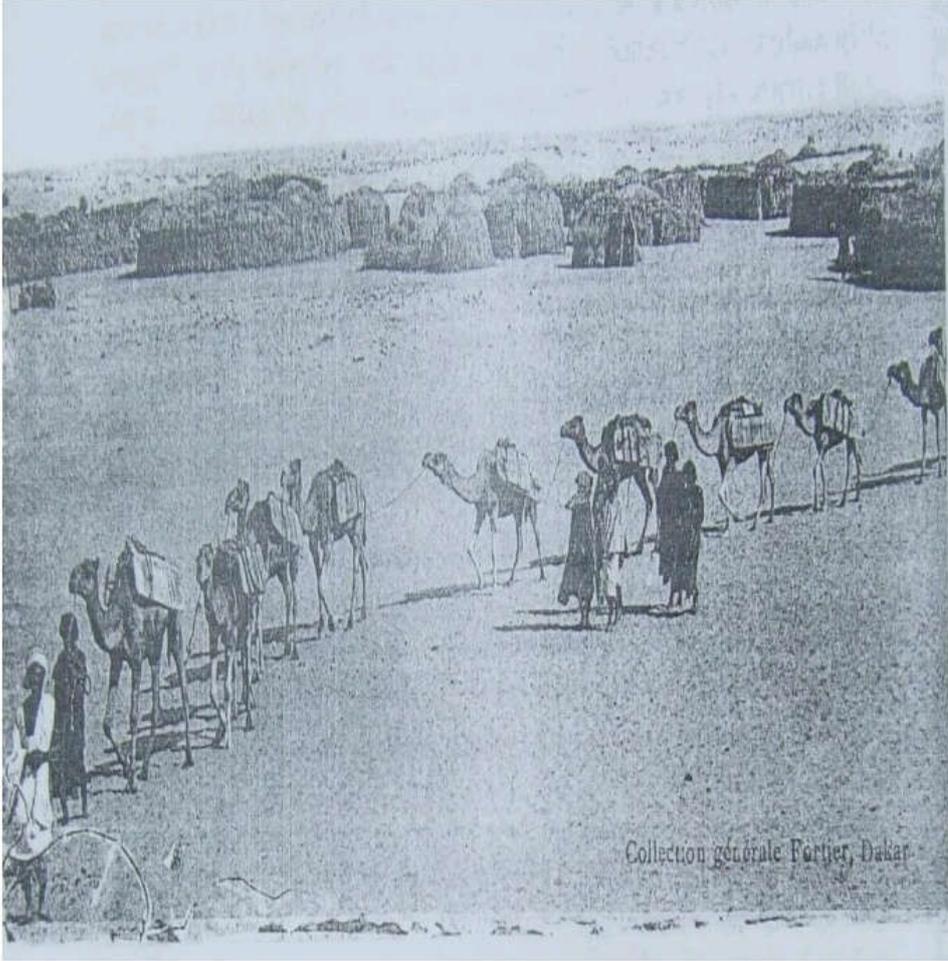
ينظر: حسن الزناتي، المرجع السابق، ص 638.

الملحق رقم 6: تجارة العبيد



ينظر: نعيم قدامح، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، ص 61.

الملحق رقم 7: صورة لنقل صفائح الملح



ينظر: خديجة دباخ، تأثير بلاد المغرب على بلاد السودان الغربي اقتصاديا واجتماعيا
(القرن 19/16م)، ص 92.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم بقراءة ورش

المصادر:

1. ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972م.
2. _____، الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1972م.
3. ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل بن يوسف (ت 810هـ/1407م)، روضة السريرين في تاريخ بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، 1962م.
4. ابن بطوطة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الواتي الطنجي (ت 770هـ/1368م)، رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المجلد الرابع، تحقيق عبد الهادي تازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997م.
5. ابن خرداذبة أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت نحو 280هـ)، المسالك والممالك، دار صادر أفست ليدن، بيروت، 1889.
6. ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد (ت 808هـ/1405م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج7، تحقيق أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض، 2000م.
7. _____ المقدمة، ط1، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت.
8. ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ترجمة إسماعيل العربي، المكتبة التجارية، بيروت، ط1، 1970م.

9. ابن قنفذ أبو العباس أحمد الخطيب (ت810هـ)، أنيس الفقير وعز الحقيير، تحقيق محمد الفاسي، سلسلة الرحلات "2"، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، المركز الجامعي للبحث العلمي
10. ابن مرزوق الخطيب التلمساني (ت781هـ/1379م)، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس فيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
11. أبو الدينار محمد بن أبي القاسم القيرواني (ت1110هـ/1698م)، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية، تونس، ط1، 1967م.
12. الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي (ت558هـ/1162م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.
13. الإصطخري أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفاسي (ت346هـ/957م)، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العالي الحسني، دار القلم، مصر، 1961م.
14. البرتلي أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق (ت1219هـ/1804م)، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد حجي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1981م.
15. البكري أبي عبيد عبد الله عبد العزيز بن محمد (ت487هـ/1094م)، المسالك والممالك، ج1، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003.
16. الحسن الوزان الحسن بن محمد (ت960هـ/1552م)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي محمد الأخضر، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983.
17. الحميري محمد بن عبد المنعم (ت900هـ/1495م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، طبع على مطابع هيدلبرغ، لبنان، ط1، 1985.

18. الزهري أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 550هـ/1155م)، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.ن.
19. الزياني أبو القاسم، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، دار المعرفة، الرباط، المغرب، 1991م.
20. السعدي عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي (ت 1066هـ/1655م)، تاريخ السودان، المدرسة البارزية لتدريس الألسنة الشرقية، باريس، 1981.
21. السويدي أبو الفوز محمد أمين البغدادي، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
22. العمري ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت 749هـ/1348م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق إبراهيم صالح، المجتمع الثقافي، أبو ظبي، 2002م،
23. القزويني زكريا بن محمد بن محمود (ت 682هـ/1283م)، آثار العباد وأخبار البلاد، دار صادر، بيروت.
24. القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج5، دار الكتب الخديوية، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1333هـ/1915م.
25. المقري أحمد محمد التلمساني (ت 1041هـ/1631م)، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج2، ترجمة إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1988م.
26. اليعقوبي أبو العباس أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب (ت 184هـ/897م)، البلدان، المكتبة المرتضية ومطبعتها الحيدرية، التحف، ط3، 1957م.
27. عبد الواحد المراكشي محي الدين عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي (ت 647هـ/1250م)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط1، 1949م.

28. الجزنائي أبو الحسن علي (من أهل القرن 8هـ/14م)، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط1، 1991م.
29. كعت (محمد بن الحاج المتوكل الكرمي الوعكري (ت 955هـ/1548م)، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، ترجمة وتحقيق هوداس دولافوس، 1913.
30. مؤلف مجهول (القرن 6هـ/12م)، الاستبصار في عجائب الأمصار في وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية، بغداد، د.ت.ن.
31. ياقوت الحموي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت (ت 626هـ/1228م)، معجم البلدان، مج 3، دار صادر، د.ت.ن.
32. ابن حوقل أبو القاسم بن علي البغدادي النصيبي (ت 380 / 990م)، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1992م.

المراجع:

33. أ.ج. هوبكنز، التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية، ترجمة أحمد فؤاد بليغ، المجلس الأعلى للثقافة، 1998م.
34. ابن شقرون محمد بن أحمد، مظاهر الثقافة المغربية، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1985م.
35. أبو مصطفى كمال السيد، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من نوازل فتاوى المعيار المعرب للونشريسي، الإسكندرية، مركز الإسكندرية، 1696م.
36. أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، لشركة الدولية للطباعة، مصر، 2003م.

37. أحمد مولود ولد أيده الهلال، مدن موريتانيا العتيقة قصور ولاته وودان وتيشيت وشنقيط، تقديم عبد الودود ولد الشيخ، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2014.
38. إسماعيل حامد إسماعيل علي، تاريخ ممالك أفريقيا جنوب الصحراء في العصر الوسيط، دار المصورات، الخرطوم، ط1، 2021م.
39. الحريري عيسى، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610هـ/1213م) - (869هـ-1465م)، دار القلم، الكويت، ط1، 1985م.
40. الدالي الهادي مبروك، التاريخ السياسي والاقتصادي فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، دار المصرية اللبنانية، ط1، 1999.
41. _____ التاريخ الحضاري بإفريقيا ما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، منشورات البحوث والدراسات الإفريقية، الرباط، ط2، 2001.
42. الزمير محمد، المغرب في العصر الوسيط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة البحوث والدراسات رقم 24.
43. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1999.
44. الشاهدي الحسن، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، منشورات عكاظة، د.س.ن.
45. الشكري أحمد، الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي (1230-1430م)، أبو ظبي، ط1، 1999.
46. العبادي أحمد مختار، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت.ن.
47. العربي إسماعيل الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.

48. _____، حاضر الدول الإسلامية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
49. الغربي محمد، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي نشأته وآثاره، ج1، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، د.ت.ن، الكويت.
50. الغنيمي عبد الفتاح ، موسوعة تاريخ المغرب العربي بين بن حفص وبن زيان وبن مرين في التاريخ الإسلامي، ج 5، ط1، مكتبة مديونية، القاهرة، 1994.
51. الفيتوري مخروم عطية، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة انتشار الإسلام)، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط1، 1997.
52. المنوني محمد، ورقات عن حضارة المرينيين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط3، 2000م.
53. المهندس فريد، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عصر دولة بني مرين ومالي (في القرن 7-9هـ/13-15م)، ط1، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، دمشق، 2021.
54. الناصري السلاوي، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدولة المرينية)، ج3، تحقيق جعفر الناصري وأحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1997.
55. النحوي الخليل، بلاد شنقيط المنارة والرباط عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجماعات البدوية المتنقلة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1917.
56. الهادي محمد علي ذهني، جهاد الممالك في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (1850-1914م)، دار المريخ للنشر، الرياض، 1988.
57. بكاي هوارية، العلاقات الزبانية المرينية سياسيا وثقافيا، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، 2017.

58. بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، منشورات جامعة قار يونس، ليبيا، ط2، 1988م.
59. تازي عبد الهادي، التاريخ الدبلوماسي المغرب من أقدم العصور إلى اليوم: عهد بني مرين والوطاسيين، مج7، المحمدية، المغرب، مطابع فضالة، 1408هـ/1988م.
60. جوزيف جوان، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات أفريقيا السوداء، ترجمة مختار السويفي، دار الكتاب المصري، مصر، 1984م.
61. حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1980م.
62. حسن نبيلة، في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، د.ت.ن.
63. دبور محمد علي، تاريخ المغرب الكبير، ج1، تاولت الثقافية، 2010.
64. دندش عصمت عبد اللطيف، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا (430-515هـ/1038-1121م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م.
65. رياض زاهر، الممالك الإسلامية في غرب إفريقي، مصر، مكتبة أنجلو، ط1، 1968م.
66. زبادية عبد القادر، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في أفريقيا الغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.
67. سعيدوني ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999م.
68. علاوي حسن حافظي، سجل ماساة وإقليمها في القرن الثامن من الهجري إلى الرابع عشر ميلادي، المملكة المغربية، 1997م.
69. عماري الحسين، المغرب والتجارة العابرة للصحراء من القرن 15 إلى القرن 18م، مطبعة وورك بيرو، مراكش، ط3، 2019م.

70. عمرو منصور، ذهب غرب إفريقيا وعروش الدول الإسلامية من سحر القيام إلى آلام السقوط 140-628هـ/757-1230م، نور حوران، دمشق، ط1، 2021م.
71. عوض محمد، الشعوب والسلالات الإفريقية، الدار المصرية.
72. فيج.جي.دي، تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة السيد يوسف نصر، دار المعرفة، القاهرة، ط1، 1982.
73. قداح نعيم، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، مراجعة عمر الحكيم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مديرية التأليف والترجمة، دمشق، 1960.
74. لوتورنو روجيه، فاس في عهد بني مرين، ترجمة نقولا زيادة، فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، 1967م.
75. محمد رياض وكوثر عبد الرسول، إفريقيا دراسة لمقومات القارة، مؤسسة هنداوي، مصر، ط2، 2015.
76. محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريد، المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2007.
77. محمود السيد، تاريخ دول المغرب العربي، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب وموريتانيا، الإسكندرية، 2000.
78. نقولا زيادة، أفريقيات دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، رياض الريس لكتابة والنشر، ط1، 1991م.
79. بنرمضان زوليخة، المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 5 و10هـ/11 و16م، ج2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ط1، 2015م.
80. حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، مج2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1978م.

81. كراتشكوفسكي إغناطيوس يوليانو فيس، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج1، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، جامعة الدولة العربية، القاهرة، مصر، 1963م.
82. بن موسى جميلة، تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي من القرن 9م إلى 11م، منشورات بلوتو، الجزائر، 2011.
83. ملاح بشار أكرم جميل، تاريخ الإسلام في إفريقيا، دار الفكر، ط1، 2014م.
84. الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين: دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط من منتصف القرن 2هـ/8م إلى نهاية القرن 5هـ/11م، تقديم محمد حجي، دار المدار الإسلامي، لبنان، ط1، 2007.
85. نبيلة حسن محمد، في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2013.
- الكتب باللغة الأجنبية:

86. -LY Madina, "L'empire du mali à traverse les sources portugaise", R.A. Z. N°= 6,7 1977, Alger: C.N.E.H .

الأطاريح والرسائل والمذكرات الجامعية:

87. الشيخلي حسن إبراهيم، تأثير الإسلام وثقافته في السودان الغربي من القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن السادس عشر، أطروحة دكتوراه، جامعة أم درمان، كلية الدراسات العليا قسم تاريخ وحضارته الإسلامية، 2009م.
88. شكيران محمد عبد الكريم، العلاقات الدبلوماسية لدولة بي مرين (668-869هـ/1269-1465م)، أطروحة دكتوراه في الآداب (تاريخ الإسلام)، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، 2013م.
89. لمن إبراهيم حامد، التبادل التجاري بين إقليمي توات والسودان الغربي وأثره الاجتماعي والثقافي (999-1317هـ/1591-1900م)، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة غرداية، 2015/2016.

90. البياتي بان علي محمد ، النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال (القرن 3-5هـ / 9-11م)، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، 2004م.

91. رضوان هواري، التحولات الاقتصادية والاجتماعية في السودان الغربي من القرن 7هـ/ 13م إلى القرن 10هـ/16م، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2020/2019م.

92. مقاديم عبد الحميد، المدارس العلمية ودورها الثقافي في السودان الغربي (مالي-سنغاي) ق 7-10هـ/13-16م، أطروحة دكتوراه غير منشورة في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، 2018.

المقالات:

93. أبو بكر إسماعيل محمد ميقا، "أشهر علماء تنبكت و غاو و جني وأثرهم في ازدهار الحركة العلمية الثقافية في مدن السودان الغربي القرون الثامن والتاسع والعاشر هجرية"، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد 11، محرم 1415هـ/ جويلية 1994م، الرياض.

94. الخثلان سعود بن حمد، "دور التجار المسلمين في رواج التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي فيما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين 11/9م"، مجلة جامعة الملك عبد العزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 1، المجلد 5، 1992م.

95. عطلي أ.محمد، الدور الحضاري للطرق التجارية بين الشمال الإفريقي والسودان الغربي، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، العدد 6، الجزائر، 2017.

96. عيدان مروة، "مدينة مكناسة والزيتونة الدراسة في الأحوال السياسية والعلمية في العصر الموحدوي وبني مرين"، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، عدد 26، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة بابل، 2016م.

97. مولاي محمد بن عبد القادر وسياب خيرة، "الأسر العلمية في بلاد السودان الغربي (10هـ/12هـ) (16م/18م)"، مجلة الساوره للدراسات، جامعة بشار، عدد2، مجلد6، 2020م.

المحاضرات:

98. بويدي حسين، الحواضر السودانية الفاعلة في العلاقات بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي(1)، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2021/2020، منصة التعليم عن بعد، الرابط الإلكتروني

<https://elearning.univconstantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727>

99. _____، محاضرة الحواضر الصحراوية الفاعلة في العلاقات، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، 2021/2020، منصة التعليم عن بعد، جامعة قسنطينة، الرابط الإلكتروني:

<https://elearning.univconstantine2.dz/elearning/course/view.php?id=727>

فهرس المحتويات

الصفحة	العنوان
	بسملة
	شكر و عرفان
	إهداء
أ	مقدمة
	المدخل: لمحة جغرافية وتاريخية عن الدولة المرينية ومملكة مالي الإسلامية خلال العصر الوسيط
8	أولاً: الدولة المرينية
17	ثانياً: بلاد السودان الغربي على عهد مملكة مالي الإسلامية
	الفصل الأول: العلاقات السياسية والاقتصادية ما بين الدولة المرينية ومملكة مالي الإسلامية
30	المبحث الأول: العلاقات السياسية والدبلوماسية
30	أولاً: نظام الحكم في الدولة المرينية ومملكة مالي
34	ثانياً: السفارات الدبلوماسية المرينية المالية
41	ثالثاً: أثر العلاقات السياسية على الدولة المرينية ومملكة مالي
45	المبحث الثاني: العلاقات الاقتصادية والنشاط التجاري المريني المالي
45	أولاً: المسالك التجارية بين الدولتين
50	ثانياً: المراكز التجارية المرينية والسودانية
72	ثالثاً: المبادلات التجارية بين الدولتين
	الفصل الثاني: المظاهر الاجتماعية والصلات الثقافية بين الدولة المرينية ومملكة مالي
83	المبحث الأول: المظاهر الاجتماعية
83	أولاً: المظاهر الاجتماعية بالدولة المرينية
87	ثانياً: المظاهر الاجتماعية بمملكة مالي
93	ثالثاً: التأثيرات المرينية على الحياة الاجتماعية بمملكة مالي

108	المبحث الثاني: الصلات الثقافية المرينية المالية
108	أولاً: دور المغاربة في نشر الثقافة الإسلامية بمملكة مالي
114	ثانياً: الوضع الثقافي والعلمي في الدولة المرينية
120	ثالثاً: الوضع الثقافي والعلمي في مملكة مالي
126	رابعاً: التأثيرات الثقافية المرينية على المجتمع المالي
130	خاتمة
133	الملاحق
140	قائمة المصادر والمراجع
151	فهرس المحتويات
153	ملخص الدراسة

ملخص الدراسة:

تناولت هذه الدراسة موضوع علاقة الدولة المرينية مع بلاد السودان الغربي على عهد مملكة مالي الإسلامية ما بين القرنين (6-9هـ/12-15م)، وذلك إبراز أهم العلاقات التي جمعت بين الدولة المرينية وبلاد السودان الغربي، بداية من العلاقات السياسية والتي تمثلت في تبادل الهدايا والسفارات بالإضافة إلى العلاقات الاقتصادية التي أشرنا فيها إلى المبادلات التجارية التي ربطت الدولة المرينية ببلاد السودان الغربي، حيث شكلت التجارة الوسيلة الرئيسية التي شملت الطرفين في إطار علاقات موطدة، بالإضافة للعلاقات الاجتماعية والتي وضحنا فيها المظاهر الاجتماعية في كل من الدولة المرينية وبلاد السودان الغربي، أما العلاقات الثقافية تطرقنا فيها إلى التعرف إلى الدور الذي لعبته الجالية المغاربية في نقل الإسلام لبلاد السودان الغربي، بحيث تكمن أهمية هذه الدراسة بإبراز التأثير المريني على بلاد السودان الغربي بداية من التأثير على بلاط مملكة مالي، وبالإضافة لبروز مراكز تجارية هامة بين البلدين، وكذلك ثبوت الإسلام واعتباره الدين الرسمي في مملكة مالي، وتغيير الكثير من المظاهر الاجتماعية في المملكة، إضافة إلى بروز حواضر علمية تضاهي الحواضر العلمية في الدولة المرينية.

الكلمات المفتاحية: الدولة المرينية؛ بلاد السودان الغربي؛ مملكة مالي؛ العلاقات السياسية والاقتصادية، النشاط التجاري، الصلات الثقافية.

Study Summary:

This study dealt with the subject of the State's relationship with Merinid state relations with western Sudan during the time of the Islamic Kingdom of Mali between the two centuries (6-9 AH / 12-15 AD). The study highlighted the important relationships between the Merinid state and the Western Sudan, starting with political relations, represented by the exchange of gifts and embassies, in addition to the economic relations, where we mentioned the trade exchanges that connected the Merinid state with the Western Sudan. Trade formed the main means that encompassed both parties within strengthened relations, along with social relations, where we illustrated the social aspects in both the Merinid state and the Western Sudan. As for cultural relations, we delved into recognizing the role played by the Maghreb community in spreading Islam to the Western Sudan, highlighting the significance of this study in showcasing the Merinid influence on the Western Sudan, starting with its impact on the Kingdom of Mali, and the emergence of important commercial centers between the two countries. Additionally, it solidified the presence of Islam as the official religion in the Kingdom of Mali and brought about significant changes in social aspects within the kingdom. Moreover, it led to the emergence of scholarly centers comparable to those in the Merinid state.

Keywords: Merinid state, Western Sudan, Kingdom of Mali, political and economic relation, social relation, cultural affinities.